بناتُ أفكار

عادل عرجاني

بناتُ أفكار

نصوص

دار علي بن زيد للطّباعة والنّشر.بسكرة.الجزائر

عنوان الكتاب: بناتُ أفكار نصوص
المؤلف: عادل عرجاني
تصميم الغلاف: حسام الدين الشيخ
الطبعة الأولى:2018
رقم الإيداع القانوني: السداسي الثاني 2018
ردمك:ISBN 978-9931-678-33-5
منشورات جمعية إشراق للفنون المسرحية – سيدي خالد.بسكرة

دار علي بن زيد للطّباعة والنّشر
حي الكورس عمارات بركامة – بسكرة – الجزائر
الهاتف/ الفاكس: 033 54 02 31

جميع الحقوق محفوظة

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

الإهداء

إلى الظروف الصعبة التي علمتني الكتابة، وعلمتني كيف أشقُّ طريقي إلى الإنسان

علمتني أن الحريق مجردُ بداية... أن الرمادَ مخاضُ ولادة...

علمتني كيف أشق الرمادَ كالعنقاءِ... نحو الحياة...

***

إلى الزمردتين الكريمتين، صاحبي الفضل فيما وصلت إليه اليوم... أمي وأبي... شكرا ملء الدّيْنِ الذي عليّ اتجاهكما...

***

زوجتي الغالية وأم الأربعة أقمار التي تدور حول قلبي، شريكة العمر التي شجعتني ودعمتني بالغالي والنفيس، شكرا ملء عمرنا سويا...

***

صديقي الكاتب والشاعر عبد المجيد محبوب الذي تفضل بمراجعة هذا الكتاب، فكان لي مثل الأب الذي يأخذ بيد ولده في أولى خطواته...

***

إلى الإنسان الذي فجرني لأكتب هذه الصفحات، وغير هذه الصفحات... سأبقى مدى العمر حالما.

***

إلى قدوتي في الكتابة ومُلهمي... الدكتور مصطفى محمود رحمه الله

مقدمة

كانت مجرد قصاصات على الفيسبوك، لتتحول فيما بعد إلى هذا الكتاب، شعرتُ أن تلك القصاصاتِ التي كتبتها وكأنها تحتاجُ إلى أن أبسط جناحيّ أكثر، لأكتب وأحلق أكثر.

عرفتُ بعد كتابة بضعِ صفحات أنني كنت أختبئُ بداخلي، وأنني كنتُ أرفضُ مشاعري دون أن أدري، وأني حين أكتبُ... كنتُ أخرجُ لأستلم دفة السفينة وأرشيف الذاكرة، وأني كنتُ أحتلُ نفسي وأقودُ ثورة عليّ، عرفتُ أثناء الكتابة أنني كنتُ أتلبس بي، لأصبح كالمتفرج عليّ، فأرى من نفسي ما يغنيني عن آراء الناس وانتقاداتهم. من خلال كتاباتي عرفت نفسي ورأيتها كما رآها غيري... وكيف عليّ أن أكون.

أحبتي... ها أنا ذا أضع بين أيديكم عصارة تجاربي، ونظرتي الشخصية للحياة، والحب، والمشاعر الإنسانية في لحظات قوتها وضعفها، ورغم أن بعض مواضيع هذا الكتاب من وحي خيالي، إلا أنني أعتقدُ جازمًا أنها قد تكون حقيقةً وواقعًا يعيشُه غيري.

هذا كتابي الأول، وقطعا لن يكون الأخير (إن شاء الله)، وإلى أن ألقاكم في عمل جديد... أزف إليكم أحبتي جزيل شكري وعظيم امتناني...

محبكم

(1)

من منهما أحلى؟

لطالما كان هوسُ الناسِ محصورا على النجاحِ وهالتهِ، وما يعقبها من أفراح الانتصارِ على النفسِ والأندادِ والظروف، لكنهم غالبًا ما كانوا ينسونَ طريقَه الوعرَ وما ألفَوْا هناك من الألم والحزنِ وخيبات الأملِ، لأن النجاحَ يملكُ مفعول الأسبرينِ السحري، فلا يكادُ يتركُ ذكرى أليمةً إلا وأخمدها ذلك الأسبرينُ العجيب.

أما أنا، فلي نظرة أخرى، نفسيةٌ أخرى، تركيبةٌ أخرى، لها من التعقيد والاختلاف ما لها.

إن شغف المحاولة عندي أحلى من لذة النجاح، لا أنكرُ أن للأخير طعما يشابه ملامسة السماءِ بأطراف الأنامل، لكن تعب المحاولة يخلف شعورا لا يوصف، شيءٌ تدركه حواسي ولا يدركه لساني الفقير إلى التعبير.

أنا أحُبُّ تجريبَ الاحتمالاتِ، لأن كل احتمالٍ يمثّلُ فشلاً مُحتملاً، ندمًا مُحتملاُ، ضربةً محتملةً تُضعفُ نسبة موتي، وتزيدُ من مستوياتِ القوة التي تُغذي روحي.

فتجدني أجربُ وأجرّبُ حتى أصلَ إلى قِمّةِ التعبِ، هناك... حيثُ لم يتبقّ سوى بضعُ خُطواتٍ فقط تفصلُ بيني وبينَ حُدودِ الانهيار.

في تلك اللحظات التي أشعر فيها أني أجثو أخيرا أمام حدود ما أستطيع، تلوح لي تلك الشرارة البعيدة القريبة، يراودني شعور الفراش وهو يضرب بالجناح فوق حدود التحمل إلى تلك النار.

يُراودني شعورُ فرخٍ صغيرٍ وهو يجربُ التحليقَ للمرةِ الأولى، يضربُ الجناحينِ بقوة، بعنف، بيأسٍ ممزوجٍ بتصميمٍ عجيب، رغم أن اليأسَ والتصميمَ لا يتلقيانِ في نَفَسٍ واحد، ففي الأسفل... تحتَ خطِّ الفشلِ، هناكَ الكثيرُ من الضواري التي تتربص به...

أشعرُ بتلك القوة الكامنة التي لا تتجلى بداخلي إلا حينما توشك ركبتاي على الاستسلام، فأقف... هنا يأتي ذلك الشعور المذهل، إنه النجاح الذي يفوق نجاح الوصول إلى المأمول، إنه التفوق على حدود ما أستطيع، التفوق على الاستسلام، والنهوض مجددا، أتشعر بما أشعر به؟

إنه النجاحُ الذي يذيبُ الثلجَ الذي يكسو أفكاري وأركاني، إنّي أتفتّقُ بالحياةِ كالبذرة صاعِدًا بينَ حُبيباتِ الثرى إلى الأثيرِ.

أنا أقف مجددا منتصرا على نفسي قبل الناس، على ضعفي قبل الظروف، على يأسي قبل قوافل السابقين.

أقف من جديدٍ منتصرًا على الاحتمالاتِ، على الفشلِ وعلى سياطِ الندم، على الأعداءِ الكثيرين جدّا، وما أكثر الأعداءَ الذين لا نراهُم مقارنةً بالأعداءِ من بني الإنسان.

شغف المحاولة عندي أحلى وأعظم وأشهى من النجاح، فالمحاولةُ هي مرحلةُ أعيشها بحلوها ومُرّها، وتجربة لا تنسى، أما النجاح فهو لذة آنية سرعان ما تذوب برغبة أخرى، وأنا صدقًا لا أحبّ الآفلين...!

(2)
جراح القريب

عندما يكون أقرب الناس أشدهم إيذاءً، يصبح الأمر كصاحب الجرح، يعالجه اليوم فيُفتح غدا، فتراهُ يتحاملُ على نفسه صابرا متصّنعا تلك الملامحَ التي لا تعرفُ الألم.

ولأنهم أقربُ الناس، يمضي ذلك المسكين على دربِ التغاضي متجاهلا كل الإساءاتِ، إساءاتٌ تتوغل داخل مساماتِ روحه، تقطعُ حِبالَ كل ذكرى جميلة، كل موقف حُلوٍ، تقتُلُ الطفلَ البريءَ الذي يعيش بداخله، حينها فقط يبدأ بالانسحابِ مُولّيا، حينها يأمرُ القلبُ عساكرهُ لترجِعَ خلف حدودِ التحمّلِ.

أنت أيها الطيب الذي لا يقوى، ولا يعرف كيف يسلم مقاليد الماضي إلى النسيان، لكن كيف تنسى وأنتَ ذاكرةُ الحجر المحفور، كيف تنسى وأنت حجرٌ مثقلٌ يحملُ الكثيرَ من الأحداثِ التي لا يعبأُ بها الزمن... ولا يعبأُ بها الإنسان.

أنت أيها الطيبُ الذي لا يحب الفراق، ولا يقوى على الفراق، بل لم يُفكِّر أصلاً في الفراقِ، ليس لأنك تألم، بل لأن إحساسَكَ العالي –

أيُّها الطيبُ -لا يقوى على مناشداتهم، على وعودِهم الكاذبةِ التي تسخرُ من دموعهم، وأنت تعلمُ وقلبكَ يعلمُ، ورغمَ كل هذا لا تقوى على الفراق.

أنت لا تقدرُ لأن كلّ شواطئكَ موانئ، كل كلماتكَ سلامٌ يبحثُ عن هُدنة، كلُّ نظراتكَ رؤى لم تُمزج بأُجاجِ الظنون، كأنكَ نسخة معدلةٌ جينيًّا كما في أفلامِ الخيالِ العلمي، كلُّ جيناتِكَ اختيرت بعنايةٍ من أفضلِ ما في الناس.

عندما يكونُ أقربُ الناس إليك أشدهم إيذاءً، يصبحُ الأمرُ مشابهًا لبعض الحوادثِ التي نسمع عنها في الأخبارِ بين الحينِ والآخرِ، نيرانٌ صديقةٌ تقتل بعضُ الجنودِ الحُلفاءِ. ولَكَمْ يُطربُكَ نغمُ تلك الكلمةِ المخضوبةِ بالدماءِ (حُلفاء)، رغمَ أن الذي يقصفُ وجدانكَ لا يعتذرُ في غالبِ الأحيانِ فهو حليفٌ، حبيبٌ، صديقٌ، وريدٌ، بل كلّ شيء تقريبًا.

وكما كل مرة، أنتَ طبعًا لا تنتظرُ اعتذارًا ممن تُحبُّ، رغم أن الذي أسقطكَ صريعًا من الأسى كان يعلمُ أن كلماتهِ تحملُ الكثيرَ من القتلِ والعتابِ المبالغ فيه، وحتى لو لم يكن يعلم، لم تكُن أنتَ لتقومَ من بين أنقاضِ الدمارِ لترثي نفسك إليه أو تلومه، ستبقى ممدّدًا ها

هُنا تحتَ أنقاضِ الوعودِ البالية، تحتَ الدمارِ وفي الدموعِ والكلامِ الكثيرِ الذي تَغرقُ فيه.

أنت أيها الطيب ضريبة تدفعها لنفسك من نفسك، أنت أيها الطيبُ خطأ بشري في عصر لا يجب أن تكون فيه، أنتَ كالمثالياتِ، أنت شفقٌ قطبيٌّ نادرُ الحدوثِ، أنت مخطوطةٌ من عصرِ الإغريقِ لم تجد من يُترجِمُها.

كان من المفترضِ أن تعيش على سطور الكتب، بين دقات القلب الذي يقفزُ منتشيا بعد قراءة رواية رومنسية، كان مفترضا أن تكون لحنَ كناري يرُجُّ الغصون، أنت أيُّها الطيّبُ خطأ بشري جسيمٌ ومسخٌ مناقض لنسخة فركنشتاين[1]

لك الله أيها الطيبُ المتسامحُ المتنازلُ السهلُ الصّبورُ حينَ يكون أقربُ الناسِ إليك أشدَّهُم إيذاءً، لك الله من الإرثِ السرمدي الذي ابتليتَ به!

(1) شخصية خيالية في رواية للمؤلفة البريطانية ماري شيلي صدرت عام 1818م.

(3)
الخيال

أسعد لحظاتِ حياتي، جلسةٌ مع بناتِ أفكاري... في عالمٍ تذوب فيه كل المآسي، عالم يتشكل فيه على يدي ما أريد، ودون أن أعيرَ للنوافذِ أي اهتمام، أغيب في خيالي فأستدعي من الوجوهِ الجديدةِ والقديمةِ من أريد، وأطرد من أريد، استقبل فيه جميع الوفود، أقررُ وأرفضُ وأغضبُ وأضحكُ وأصالحُ وأخاصمُ من أريد... وفي الوقت الذي أريد.

مع بنات أفكاري، أعيش النشوة الكبرى، كأني ذلك الرسام الذي يتمايل طربا بين يدي ريشة ولوحة، أرسمُ المشاهدَ والشوارع وديكورَ القصرِ وملابس الضيوفِ، أرسمُ الابتساماتِ على وُجوههم وتفاصيلَ اندهاشهم، أرسمُ الجوّ المفضل عندي، سحابًا أبيضًا جميلَ التمزُّقِ، سحابًا يحملُ الأخبارَ السعيدة دومًا، أعتقدُ أنّ بعضَ الزخاتِ اللطيفةِ لن تفسدَ ألوانَ الطلاءِ.

سأرسمُ شيئًا من المستقبلِ وشيئًا من الماضي كما وددتُ أن يكونا، لأحيا فيهما كما أردتُ دومًا أن أكون، سيكونُ محورُ الزمنِ مُتاحًا

للسفرٍ على الدوامِ، دون تذاكرٍ ودون حجزٍ مسبق، سيكونُ بالإمكان أن أعيش طفولتي بالشكلِ الكاملِ الذي أردتُ... وأن أعيش أحلامي بالشكل الذي أريد.

سأرسمُ الحُبّ الذي يُقالُ أنه كالعفريتِ، لا يتجسّدُ إلا لمن يُرِيدُ، وفي الوقتِ الذي يريد.

لحظة... هل بالإمكانِ أن أرسمَ الحب؟ كيف سيكونُ شكلهُ إذن؟ وبأي هيئة يُمكنُ أن يكون؟ وأي لونٍ يا ترى سيرتدي؟

كأني ذلك الملحّنُ الذي يتنقلُ بين المقاماتِ والنوتاتِ وكأنه يسافرُ بين الكواكبِ والنجوم، فأخترعُ جملاً موسيقيةً جديدةً تأسرُ القلوبَ أسرًا، تقطفُ الدموعَ كحباتِ لؤلؤٍ من على شواطئ الأجفان، ألحنُ أصواتَ الكناري والحسونِ وأجعل لها كلماتٍ بشريةٍ تنطقُ بالحبّ والموسيقى والجمالِ، فتصيرُ كل حواراتِ شعبي وضيوفي أغانٍ خالدة، وروتينًا لا يعترفُ برتابةِ الألفاظِ، وجفافِ الأحاسيسِ.

وكأني ذلك الزورَقُ الورقيُّ الذي يستكشفُ النهرَ العظيمَ دون أن يخشى اهتراءً أو نهاية حزينة! شيءٌ جميلٌ أن أركبَ التيارَ دون أن أعيرَ لسرعته وشدته أي ارتعابٍ أو ظنون، كأني أنا من أجري بهِ... لا هو!

فأشقُ نهرَ السنينِ دونَ التفاتٍ لحُدودِ قدراتِ جسدي الفاني، فأنا أعيشُ في روحي وفي مملكةِ الشبابِ، وأنا الذي كنتُ أظنُّ من قبلُ أنّ بيتر بان[1] محضُ خرافةٍ وخيال!

هكذا أمضي في عالمي الخاص، أصنف وأكتبُ وأُلَحِّنُ وأصممُ الكثير من الأمنيات، فمرة أصيرُ ملكًا، أو فارسا نبيلا متمردًا على الحياة وواقعها، ومرة أكون مثل راعٍ ينعَمُ تحت ظلِ شجرة، يشكلُ أحلى الصُّورِ بذلك السحابِ الممزقِ في السّماء، وحيث الوقتُ في عالمي من الخرافاتِ، أضيعُ في خيالي عاشِقًا لذلكَ الضّياعِ الجميلِ... بين أحلى وأبهى وجوه.

أسعد لحظاتِ حياتي، جلسةٌ مع بنات أفكاري، أجملُ أُنسٍ... وأبهى ختام...

(1) شخصية خيالية لعبت دور البطولة لولد شقي يمكنه الطيران ولا يكبر، حيث يقضي مرحلته الطفولية التي لا تنتهي في مغامرات على جزيرة نيفرلاند.

(4)

طريق وإشارات

وأنا ماضٍ في طريقي بين حطام الحياة وبين جمالها، يحدثُ أن يصادفني الكثير من البشر، فأقفُ متسائلاً: كم يشبهُ الناس إشاراتِ المرور، كأن كل واحد منهم دليلٌ على الطريق الذي سأسلكه، كل واحدٍ منهم يساهم في مشواري بشكلٍ أو بآخر، فمنهم من يسرهُ تأخُّري، ومنهم من يسره نجاحي، ومنهم من لا أهُمُّهُ على الإطلاق، وغيرهم يعترضني... وغيرهم يصدُني، وآخرين يفتحون لي جميع المعابر.

هناك من يبدو لي مثل إشارات التوقف، هذا النوعُ من البشرِ لا أملكُ إلا أن أتوقف غصبًا أمامه، لأنّ تلك الهالة العظيمة التي تزينُ وجهه، تشدني إليه، تمامًا كما يفعل البدرُ بالعاشقين، أقف احتراما وحبًا وإجلالًا، أفعلُ ولا أملكُ إلا التوقفَ أمام ذلك الجلال.

وآخرٌ يبدو مثل إشارات التحذير، فأعبُرُ وأنا أركبُ خطوبَ القلق، سالكا شِعابَ الحيرة والخوف، فلا أدري أأسرعُ الخطى أم أرجع القهقرى، فلا يكاد يغمضُ لي جفنٌ، أو يهنأ لي بالٌ إلا وأنا بعيدٌ بعدُ

السّماءِ عنه، وعن الظنونِ الكثيرة التي تكادُ تقتُلني من شدة القلق والخوف.

وهنالكَ من هو كإشاراتِ الخطر، ولولا يثبتني الله ويربطُ على قلبي، لتوقفتْ ساعات عمري، ولبقيتُ مثل حصاة تراوحُ أعماق البحر، فلا هي تسبحُ وتشق طريقها مبتهجة كالأسماك، ولا هي خرجت إلى البرّ تعانق الحرية، هذا النوع من البشر أقتحمُهم بكل ما أوتيتُ من ثقل الشجاعة، فالأمر هنا قضيةُ مصير ووجود، قضيةُ أكون أو لا أكون.

وهناك أخيرًا ذلك الصنف الذي يشبه إشاراتِ التوجيه، هؤلاء... رحمةُ الله في أرضه، يعيشُونَ لأجل غيرهم، ويموتونَ من أجل غيرهم، هؤلاء أنفع للأرض من شمسها ومائها وهوائها، هؤلاءِ للأسف لا يمكن صناعتهم ولا استنساخهم لأنهم ببساطة... ذهبٌ خالصٌ يتشكلُ بقدرة الخالق...

هكذا أعرف طريقي، فمن وضع قدمًا في غير موضعها... فلا يلُومنَّ التِّيهْ...!!

(5)

حقيقة المحبة

إنّ المحبة لا تأتي بين الناس عبر الشكل الجميل، أو من خلال الكلام المطرز بالمجاملات، ولكن تأتي بالتوافق العقلي وانسجام الفكر بالفكر، فإن ارتحتَ لي وارتحتُ لك، كنا كمن يُؤنسُ بعضُه بعضَه، كُنا كمن يفكر بصوتٍ عالٍ، كمن يُطالعُ الصدقَ في المرايا، من غير المعقول أن ارتاحَ لمجرّدِ طارئٍ يزولُ بقدرة الزمن... عدويَ الأزلي.

من غير المعقول أن أرتاح لك لمجردِ فاصلٍ من كلام منمقٍ يعبقُ بأغلى العُطور، أو كمثلِ موشحات أندلُسيةٍ تروي قصصَ عاشقينَ مجانينَ أذابهم صدٌّ وأمنياتٌ لم تتحقق، ماذا جنى العشاق من منديلِ جاريةٍ معطر... سوى فتاتٍ من لحظاتِ الحب، وومضاتٍ في سماءِ الشوق.

من غير المعقولِ أن أرتاح لكِ أيتها الحسناءُ لمجردِ ثيابٍ جميلة ترتدينها، وتسريحة شعرٍ متجددة، وعطر يعبق من جيدكِ، ولو قتلَ حوله الملايين، ولو جمعَ حولهُ من الأسرى الملايين، أنا لا أخدعُ بالقشورِ... لأنني تعلمتُ أن القشورَ لا تخفي دومًا ما هو أجملُ وأنفع.

من غير المعقولِ أن أرتاح لكم أيها الرفاق، لمجردِ حفنةٍ من النكات، أو سهرة تلفُّها الضحكات الطويلة، ثم ننسلُّ مع الليل قبل طلوعِ النهار، ثمّ ما ألبثُ حتى ينجلي النهارُ حين يمضي بلا رفاق، وأنا دون رفاق.

من غير المعقول، لا أستطيع... لا لست أنا من تستوطنُ قلبه قُصاصاتُ الزمن، لست أنا من يؤجرُ قلبه إلى الفراغ، إلى الزوالِ وإلى انعكاسِ الصور، أنا لا أؤجرُ... أنا أُملّكُ قلبي لمن أحب فحسب!

فإن سألتموني من أحِبُّ، أجيبكم:

أحبُ ذلك الأصليّ الذي لا يتغير، ذلك السهل الذي لا يستعصي على إعجابي، أحب ذلك الذي يفكر بي، وعني، ومني تولد أفكاره، لتعود إلي أخيرًا كالنوارس تدُلني إليه!

أحبّ ذلك الذي يبحث عني بداخلي، وليس بتفاصيلي التي يكذب بها الزمن، فأنا بعد بضع سنين، لست أنا... أنا بعدَ بضعِ سنينٍ لستُ أشبهني...

أحب ذلك العجيبَ في كل فعل، في كل حرفٍ، في كل نظرة، في كل حركة، في كل اعتذار، وحتى في أشدِّ حالاتِ انكسارهِ سوءًا، أراهُ حينها زنبقًا أو ظلّ غابة، نقشًا لعهدِ الحبيب، أراه في كل مثال حي للجمال، فإن ارتحتُ له، وارتاح لي... حينها بكل قوةٍ... أُحِبُّ!

(6)
أجرام

ما أعجب العصرَ الذي ابتُلينا به، عصرٌ يعيشُ فيه المتواضعُ ظلاًّ خافتًا، متواريًا خلف خُطا المتكبرين، وهو أكبرُ منهم، وأعلى شأنًا منهم، لكنه يفضلُ أن ينزوي بعيدا عن شُعاعهم الزائف، كأن هذا النوع من النفوس الأصيلةِ كالأجرامِ مُقدرٌ لها أن تسبح في كون يعُجُّ بالفراغ، لتكونَ الصورة البهية، والمنبَع الوحيدَ للنّور، للنقاءِ والحقيقة.

هذا النوع من النفوس ضربةٌ موجعةٌ لتلك الأمثلةِ البشرية التي تحترفُ مهنة تضخيم الصور، والأفعال، والأفضال، وتحترف تسول نظرات الإعجاب وعبارات التملق والمجاملات... هذا النوع من النفوس نوعٌ خفيّ تقيّ نقيّ من شوائب المصالحِ، ومن بُهرُجِ الدنيا وضعف الشخصية.

إن المتواضعين علامة فارقة في الجنس البشري، ودليل قاطع على أن الملائكة موجودة بالفعل، وكما تتنزلُ الملائكة من الملأ الأعلى... من ذلك الوجود النوراني إلى مجتمعٍ مُمزق بين الأنا والمبادئ من جهة وبين الأخلاقِ والتشوهاتِ من جهة أخرى، فالمتواضعونَ كذلك يتنزلون إلى

ذلك المجتمع المريض، بأنفسهم النقية التي لا تريدُ سوى أن تكون عود بخورٍ يضوعُ، أو مثل حقيبة الطبيب الذي تطوع لعلاج المرضى المشردين بالمجان، بل مثل الأسانسير الذي ينزل طوعًا كي يرفع الناس عاليا.

هذا النوعُ من النفوسِ شكلٌ عجيبٌ من التناقضِ المنطقي، إذ كيف تكون الحركةُ إلى الأسفلِ هي ذاتها نقلةٌ إلى الأعلى؟

بل كيف يرتقي المتواضعونَ إلى قببِ النفوس، بالتنزلِ إلى طبقاتٍ حُرمت من العز والجاه والعلمِ؟

كيف تصبحُ العيونِ والقلوبُ التي تهوي إلى عمقِ هذا النوعِ الأصيل من البشر وكأنها تهوي إلى السماء؟

هذا التناقض المنطقي العجيبُ لا يحدثُ إلا لديهم...

هذا النوع من النفوس وإن طغى حولهم الليل البهيمُ، وإن سالَ على نوافذِ البصائر، غير أنه لا نملكُ إلا أن نتوه إليهم، وأن يزيد الشوقُ إلى لقائهم لننعمَ بطيب قُربِهم...

هنيئا لهم بهكذا أرواح... هنيئا لبني الإنسانِ بهكذا أجرام...!

(7)

لمَ أتغير لأجلك؟!

أحيانا يطالبنا البعض بالتغيير...

كأنهم مركز الكون حتى نغير مسار مداراتنا؟!

يطالبوننا دومًا بأن نكون ما يُريدون، وأن نلبسَ الألوان التي يريدون، وأن نردد الكلام الذي يريدون.

أيها الطامعون في وفائنا، ما هكذا يُسبى الوفاء، أيها الطامعون في نسخة أفضل منا، ليست هناك في الحقيقة نسخة أفضل منا في غيرنا، فقد خلقنا الله كي نكون مثلما أراد هو، لا كما أردتم.

نحن نتغير حين نشعر بأن من نحبّهم يستحقون التغيير، فنطرح من مشاعرنا الكثير، ومن احتياجنا الكثير الكثير، نحن حين ترسو مواكبنا بأرض تَحْفَلُ بها، شموعنا لا تنطفئ، أفراحنا لا تنتهي، نحن حين نحبّ، كل مواسمنا تبثُّ من روابيها الرّبيع، وتسطعُ من كل حدْبٍ فيها شمسُنا، نحن حين نحبُ من يستحقُّ، لا يغيبُ عن حقلنا السنونو، ولا تخشى السنابلُ جورَ الرياح، أيها الطامعون فينا أن نتغير، نحن لا نتغير... بل نموت.

خذونا إذن جثثًا تُلبي ما تريدون، خذونا دُمى، ولا تغسلوا من مجرى الدموعِ دما، خذونا عنوة...قسرًا دون إذننا، نحن لا نتغير نحن نموت فحسب، وكيف يتغيرُ الأصيلُ إلى هجين، كيف يُشرقُ الحُسنُ من الوجهِ الحزين؟!

خذونا صمتًا سرمديًا لا يشِفُّ منه الرفضُ ولا المقاومةُ ولا حتى المللُ والتذمُّرُ.

خذونا لهبًا لا يُحرق، خذونا صباحًا لا يُشرق، خذونا شفاهًا لا تهذي، خذونا كما أردتم لا كما أردنا، لكن لا تلوموا الموتَ فينا.

خذونا وعودًا كاذبةً مفضوحة على وجوهنا، خذونا مليونَ موّالٍ حزينٍ ومليونَ جُرحٍ دفينٍ، يدفِقُ تحتَ جلودنا.

خذونا بدونِ تأمينٍ على مبادلةِ المشاعرِ بالمشاعرِ، لأنه ليس لدينا مشاعرٌ تنبتُ وتحيا في ظروفٍ تحت درجةِ الصفرِ.

نحن حينَ نحبُّ من يستحقُ، تتخلّى أسرابُنا عن غريزةِ الرّحيل، وتنحسِرُ الأمطارُ عن ابتساماتنا، نحنُ حينَ نحبّ من يستحِقُّ، نصبح أشد حقيقةَ من الكون، تُصبحُ كل المثالياتِ مضروبةَ في الصفرِ، وجميعَ أمنياتِ أحبائنا حقيقةً وبديهة... !!

(8)

ما أصعب الفشل!

على رصيف الأمنيات، أين تنبتُ الأحلامُ حول الخطى، أمشي ونفسي تهفو لما تريد، تهوي دون أن تلاحظ عمق هذه الأحلام، أحلامٌ مجهولةُ النهاية.

كم هي مؤلمة جدا تلك اللحظاتُ التي تشردُ بي في عالم موازٍ، في عالمٌ أشاهد نفسيَ فيه وأنا أنالُ كل ما أريد. وبين فينةٍ وأخرى، أسترقُ النظراتِ عبر زجاجِ ذلك العالمِ... إلى الواقعِ الذي هربتُ منه!

عالمٌ لا أحتاجُ فيه إلى الأزرارِ والأوامر، هكذا فقط من لا شيء، تخضرُّ الدنيا، ولا أمدّ يدي إلى الأشياء، بل هي التي تمدّني بنفسها، عالمٌ لم يهُن فيه الحبّ من قبل، ولم يُطعن فيه ظهرٌ من قبل، عالمٌ أنجحُ فيه رغم تحذيراتِ الواقع من الأوهام، ورغم جميعِ المؤشراتِ التي توحي لي بأني مجرد حالم لا يهضِمُ الفشل.

وكما تعودتُ دومًا، كلما قفزتُ في أمنية غرقتُ، شبعتُ فشلاً، شبعتْ أرجائيَ من الانكسارِ والتحطّم، لهذا اخترعتُ هذا العالم الموازي، عالمٌ تضجُّ فيه زغاريدُ الرجاءِ وأغنياتٌ الحماسة، أغنياتٌ

جارفةٌ كأهازيجِ البحارة... عالمٌ أنجحُ فيه غصبًا، أعشقُ فيه ولا أُقتل، أضيعُ فيه ولا أتوه... أبكي فيه ولا أحزن...!!

إن للفشلِ طقوسًا، صدقًا لم أعد أحتملُها، فأنا حين أفشلُ في تحقيقِ أمنيةٍ ما... يتوقفُ كل شيء، الزمنُ والتنفسُ والحركةُ والتفكيرُ والأحلامُ وكل شيء تقريبًا إلا شيئًا واحدًا، لا يبقى إلا نبضُ القلب خافتًا، فتصبحُ كل نبضةٍ وكأنها صوتُ السياطِ، صوتُ الصراخِ، صوتُ البكاءِ، صوتٌ غير مفهومٍ لا يدركُ ما يحدُث، ولا يدري ماذا يفعلُ هنا... داخلَ هذا الجسدِ المكلومِ المتعب... لكن ماذا بيدي لأفعله؟

من للحظاتِ الفشل التي تشبهت بوطأة السنينِ أن تمر!

وهذه الـ (لو) التي تُفاتحُ انكساري... تعبي... استسلاميَ الكبير...!

وبين كلّ "لو" وَ "لو"... حديثُ أمنياتٍ تعانقُ ما أريد...

إن للفشلِ سطوة على النفسِ، صدقًا لم أعد أطيقها، أنا لستُ مثل أطلس[1] حتى أحمل الدنيا على كتفيَّ أبدًا، أنا حين أفشلُ ويُجهضُ القدر أمنياتي، لا أجدُ ملجأ ولا مأوى إلا في الأمنيات والأمل... لا أجدها إلا في العالم الجميلِ الذي صنعتهُ بداخلي.

---

(1) إله معبود في الميثولوجيا الإغريقية، يشتهر بحمله قبة السماء على كتفيه، وهو أحد العمالقة الأقوياء كهرقل وغيرهم.

(9)

نقيضان متكاملان؟

لطالما كنتُ معارضًا لفكرة الشك وسيلةَ إلى الحقيقة، ذلك لأن نسبة المخاطرة ترجح كفتي الفوز والخسارة معًا، فبقدر ما يكون الشكُ تساؤلا مشروعًا وخطوة إلى أغوار المجهول، بقدر ما يكون أيضًا معولاَ يهدم ما تبنّيتُ من قناعاتٍ وعلاقاتٍ واعتقادات.

هنالك أشياءٌ مجرد الشك فيها يعني الهزيمة المؤكدة، فأنا مثلاً لا أشكُ في الغاية من وجودي ولا من أينَ أتيتُ، ولا أشكُ أن كل ذرة في الكون خلقت لتسبح نحو غايتها المحددة لها، يوم أن أمر الله الكون أن يكون، لا أشكُّ في البديهياتِ والحقائقِ المسلّمةِ، ولا في صدقِ الخطِّ المستقيمِ في جميعِ إسقاطاتهِ على الفيزياءِ والبداهةِ... وسِيَرِ الناس.

لا أشك في إخلاصِ من حولي رغم نفاق بعضهم الذي يفوحُ من زلات الكلام، لا أشك فيهم لأنني أعاملهم بما أعتقد لا بما يعتقدون.

لكن مؤخرا... هنالك شيء تعلمتُ أن أشك فيه وبقوة، تعلمتُ أن أشك في حدود تحملي وفي حدود قدراتي، في حدود الحدودِ التي ظننتني أعجز عندها.

غالبا ما تكون هذه الحدود وهمية مثلها مثل خطوط الطولِ والعرضِ التي تملأ الخرائط الجغرافية، لأن خطوةً واحدةً قد تكون كافية جدا لتحطيمِ جميع الأرقامِ القياسيةِ التي حطمتُها سابقًا... نعم، بخطوةٍ واحدةٍ فقط.

إذن فالحدودُ تضعفُ أمامَ تلك الخطوة، بشرطِ أن تُحاكي هذه الخطواتُ المتباعدةُ زمانيًا ميكانزماتِ الأمواج.

ومما تعلمتُ أيضًا... أن تلك الحدود الوهمية تبدأ في الزوال ما إن تحقق أحد النقيضين، الشك والإيمان، إن الشكَّ يرفضُ دومًا تلكَ الحلولَ الجاهزة، بل يتطلّعُ دومًا لما وراءَ الظنون، أما الإيمانُ فهو تحصيلُ حاصِلِ لما اكتشفتهُ بعد حملاتِ الشّكِّ المتتالية، أن كل الحدودِ يُمكن أن تهوي بخطوة واحدة.

خرجتُ مؤخرا بالنتيجة التالية، من لا يشك في تقديره لنفسه لا يمكن له أبدا أن يتطور أو يتقدم قيدَ أنملة، يجبُ أن أؤمنَ دومًا أن شكّي لا يزالُ في طور الشرنقة، في عمر البراعم، لؤلؤا في جوف صَدَف، يجب أن يكون شكي شكا جميلا، فأنا الآن أشكُّ أني قد أستسلمُ، وأؤمنُ أشدّ الإيمانِ أني سأنتصر!

(10)

توقعات

تعلمتُ أن أتوقعَ دومًا عكس ما كنتُ أتوقع، فتدابيرُ الخالقِ غالبًا ما كانت تأتي بما لم نتوقع، قد تستشفّون اليأس في كلماتي، لكنها العقلانية والمنطقُ، لأنّ كل ما يتوقعُه الإنسانُ لا يحدثُ غالبًا... وإن حدث وكان، فبطريقةٍ لم يتخيلها، أو بصورةٍ قد بُتِرَ منها جزءٌ ما.

توقعتُ مثلاً أن أجدَ الوظيفة المحترمة، فإذا الدنيا تصفعني بالبِطالة اثني عشرة عامًا، رُغم الشهاداتِ الكثيرةِ التي حصلتُ عليها، فمن بائعٍ في محل بقالة براتبٍ... ظننته لوهلةٍ أنه صدقة، رغم فرحتي الشديدة حين قبضتُ أول –صدقةٍ– في يدي، إلى عاملٍ في محطة وقودٍ أملأُ سياراتِ الناس بالبنزينِ يرمُقُه الناسُ كل يومٍ بنظراتِ الشفقة، لأنهُ المسكينُ الذي لم يُواصل دراسته (ولكن شُبِّهَ لهم).

وهكذا من هذه الوظيفةِ إلى تلك، لم يحدُث ما توقّعتُ حينَ حملتُ الشهاداتِ معي خلالَ هذه الحلقة المفرغة اللانهائية.

توقعتُ أن أجد الحبّ الكبير، فإذا جميع الذين أحببتهم ندوبٌ حول قلبي، تشبه الندوبَ التي على سطح القمر.

أحببتُ صديقي زكريا، لكنّ الله اختارَ له جوارًا غير جواري، ومُذ رحلَ قبل سبعةَ عشرَ عامًا، إلا أنه لا يزالُ ينفلتُ بوجههِ البريءِ من وراءِ ستائرِ الأجفانِ حين أسدلها، دومًا وكل ليلة.

أحببتُ آخرين كثيرين لكنّهم دومًا لا يلبثونَ حتى يغيبوا بلا رجعة، أو يُسافرونَ بلا رجعة، أو يتغيرونَ بلا رجعة. توقعتُ أن الأصحابَ لظهري ظهرٌ لا يميل عني، فإذا الظهرُ للأمطارِ والإعصارِ هوايةُ جلاد.

توقعتُ أن أعيشَ وحيدًا في سلامٍ بعدما تحطمت كل توقعاتي السابقة، فانكمشتُ إلى جزيرةِ الوجدانِ، فلا أفكرُ في الوظيفةِ والراتبِ، ولا في مطالبِ الزوجة ومواعيدِ فُسحةِ الأولادِ، لا أفكرُ في حضورِ حفلاتِ الزفافِ ولا في التدافعِ من أجلِ الحصولِ على تذكرةِ الدخولِ إلى الملعب، أعيشُ وحيدًا دونَ صخبِ الأحلامِ، مُبرمًا معاهدةَ حسنِ الجوارِ مع النفس الغاضبةِ من كل شيء.

لكن جزيرتي لم تلبثْ أن بدأتْ أطرافها تتآكل وتنزوي شطآنها إلي، بدأتُ أقتاتُ على النفسِ التي تعاهدنا معًا على الصلحِ والسلام.

توقعتُ أني إن خرجتُ إلى العالم مُجددا، سأتعلمُ من توقعاتي السابقة أن لا شيء منها سيتحقق فلا داعي إذن للتجربة من جديد، فإذا بي أراوحُ مكاني ويسبقني الزمن.

كم أشبهُ قنبلة من عهدِ السوفياتِ، قديمةَ التصميمِ مهترئةَ ليس لديها القدرة على الانفجارِ، ليس لي لغةٌ هذا العصر، ولا عُملةُ هذا العصر، ولا شغفُ هذا العصر، ولا دليلَ أصلاً يثبتُ أني أنتمي لهذا العصر.

فماذا عساي أفعلُ وكل توقعاتي مختزلةٌ حد الصفر، ماذا عسايَ أفعل وكل النتائج أثبتت أن لا شيء مما أحلم به يتحقق؟

هنا... حينها فقط... وصلتُ إلى نقطة الإيمان الكاملِ بأن التوقعاتِ التي أطلقُها ليست حياة أعيشها، بل حياة أرسُمها ولا ترسمني، أمحُوها ولا تمحوني، حياةَ أعيدُ تخطيطها، اكتشفتُ أن تلك التوقعاتِ مجرد فقاعات صابونٍ، إذا ما انفجرتْ... أنفخُ غيرها وحسب، ثم أعيش يومي بعدها... وحسب.

(11)

فكرٌ، أرضٌ ومطر...!

ما أجمل الفكر حين يحاكي علاقة الارض بالأمطارِ، اقرأ ثم اكتب، أنبت لنا حرفًا جميلا، أنبت لنا من القصائدِ والنثرِ من أجملِ ما يُمكنُ أن يكون.

أنبت لنا كلماتٍ حبلى كالسنابل، في كل سنبلة مائة فكرة، مائة ألف حبكة، مليون عاطفة تشاكس رياح الحب الأزلية. أنبت لنا كلماتٍ حمراءَ العواطفِ كحباتِ الكرز، كلماتٍ كنباتِ العُلّيقِ شديدَة الوفاء.

أنبت لنا من الأزهار ما استطعت، من الزنابق والفل والياسمين، من كل لون إلا اللون الأسود الحزين. أنبت لنا من حقول الوجدِ قرنفلا، وزهرة من اللوتسِ تكسرُ روتينَ البُحيرة الحزين، أو نفقًا من زهرِ الأوركيدِ يبثُ عبق الفضيلةِ والأخلاقِ... في مساءٍ هنديّ شديد الهدوءِ.

أنبت لنا من الأشجار أطولها عمرا، أشجارًا لا تُخاصم فصلا وتعشقُ آخر، مَن أوراقُها تحيا على جسد الغصونِ قميصًا، نكاية في برد

الشتاء. أنبت لنا من شجرِ الزيتونِ، من الكستناءِ، ومن شجر القيقبِ السعيد.

أنبت لنا في الأرض القاحلة صبّارًا، ومن نباتِ الإستبسِ العنيدِ، أنبت لنا نخلاً يرسم الواحاتِ خالاً أخضرا على جسد الصحراء الأصفرِ المعدوم.

أنبت لنا من النعناع والشاي والزعتر، من النارنج والبابونج والريحان، ومن حقول الحناءِ كسّر روتينَ الحناءِ البُني، أنبت لنا أرضًا فاقعٌ لونها من الزعفران... تسرّ القارئين!

كن أرضًا، اقرأ مطرًا، ثم اكتب وأنبت لنا حرفا جميلاً نحتلّهُ كالفراش، نحتلّهُ كوفودِ النحلِ العِطاشِ إلى الرحيق.

(12)

لا أسمع، لا أرى، لا أتكلم

وجدتُ السلامة من أذى الناس في تعطيلِ جميع حواسّي، لا أرى لا أسمع لا أتكلم، وإن استدعى الأمرُ أحيانا ألا اتنفس، مدعيا موتي مثل ذلك الأبسومِ[1] الضعيف، فلكي تعيشَ وسط هذا المجتمعِ المريضِ يجبُ أن تكونَ إنسانًا ميّتًا إكلينيكيًّا، وأن تختزلَ مظاهرَ الروحِ، داخل روحِكَ فقط.

أنا لا أرى نظرات الازدراء، نظرات العُجب والخيلاء، نظراتِ التصنيفِ، نظراتِ الفضول والتطفلِ، لا أرى سوى ذلك النور الذي ينادي في آخر النفق، وليس معي أحدّ في ذلكَ النفق، لا أرى أحدًا معي في الخندقِ الذي على جبهةِ القتالِ، فأنا مُذ قررتُ المواجهةَ وجدتُ نفسي وحيدًا في جبهة القتالِ.

لا أرى إلا تلك الأغصان التي تحدت قوانين الفيزياء في تسلقها إلى السماء، فلا يهمها الزمنُ ولا تربصاتُ الفؤوس، تنمو لتكبر، وتحيا

(1) يسمى أيضًا الفأر الجرابي: حيوان ينتمي إلى عائلة الشقبانيات، يتظاهر بالموت عندما يحدق به الخطر.

لتعلو، وتتنفس سم الكربون نهارًا، لتتنفسَ الأكسجينَ النقيّ ليلاً، هو نفسه الأكسجينُ الذي تجرعت لأجله ذلك السم، وخبأته بين ذرات الأثير تحسبًا لغربة الشمس، ووحشة الليل.

لا أرى إلا احتفالي بنفسي وحشدا مِن (أنا) يضمني... ومن يفهمني مثل نفسي، ومن يحفلُ بي غير نفسي التي مُذ وعيتُ وجودي وهي ترفرفُ بين جنبيّ؟

لا أسمعُ نعيق الحاسدين، صراخ الفاسدين، قرع نعالِ الراحلين، لا أسمع همسًا ولا حتى خواطري الممزقة بين جوارحي، لا أسمعُ التحذيراتِ مهما كان لونها... أحمرًا كان أم أصفرًا، لا أسمعُ العتابَ السخيفَ بأني أبالغُ في الصمم، هكذا هو الأمرُ لأنني سمعتُ الكثيرَ من الألم، سمعتُ الكثيرَ من النكرانِ والكذبِ، والكثيرَ من الرصاصِ الطائشِ الذي أصابَ مقتلي.

أنا الآن، لا أسمعُ إلا نبضي الذي لم يتوقف يوما لأحد، ولم ينبض يوما لأحد، لا أسمعُ إلا خطبَ الحماسة التي ألقيها عليّ وانشراح صدري بها... شيء جميل أن يكون الإنسانُ أصمّا بين الحين والآخر، فلا يكون مضطرًا لسماع كل شيء، ولا يتلقفُ بالخطأ أخبار الذين انتهوا من حياته، ولا ينخدعُ بالنبراتِ المدوزنة على أوتار

الكذبِ، شيء جميلٌ أن ينتهي ذلك الصخبُ الفارغُ وتعودُ المشاعرُ سيدة على خواطر النفوس.

لا أتكلم لأحدٍ يُهينُ حروفي بالصمت، بالإهمالِ وبالبرود، وكأنني فيلم صامتٌ بالأبيض والأسود، وكأنني أفتقر إلى البيانِ فيكتفي هو بمحاولة تفسير ما يحاول قوله ذلك المهرجُ خلف الزجاج.

لا أتكلمُ لمن يضعُ الشّدّةَ فوق حروف كلامي، وكأنه لا يفرقُ بين الحرفِ والحربِ، لا أتكلمُ لمن يركبُ آخرَ كلمة أقولها... إلى سياقٍ ثاني.

هل رأيتَ يوما مشتلة الأزهار تُهين أسرابَ اليعاسيبِ وتردها؟ هل رأيتَ يوما أرضا ترفض الأمطار وتلفُظُها؟ هل رأيت يومًا كتابًا نفث حروف الشعر من صفحاته؟ لهذا أنا لا أتكلم إلا لمن يُشبه كرم الأزهار، حاجة الأرض ودفئ صفحات الكتب.

وجدتُ السلامة من أذى الناس في تعطيلِ جميع حواسّي، لأنها الزادُ لروحي، وأنا حقا غير مستعدٍ لتبديدها على من لا يستحق، إنني لا أسمعُ إلاّ لمن يطرقُ مسامعي كما يفعلُ المطرُ على الشبابيكِ الموصدة، لا أرى إلا الوجوهَ التي ينزلقُ الصدقُ على صفحاتها كزوارقِ النجاة، لا أتكلم إلا لمن شبابيكُهُ الموصدةُ لا تضيقُ ذرعًا بالمطر!

(13)
خمسٌ وأربعون!

هنالك من الأسماكِ نوعٌ يسبحُ إلى السطح كل خمسٍ وأربعين دقيقة، إذ يحتاجُ لبعض الأكسجين النقيّ، هذه العمليةُ لا تتطلّبُ سوى ثوانٍ قليلة ليفعل ذلك، يتنفّسُ ثم يعودُ إلى الأعماقِ، إلى ظلامِ القاعِ وبردهِ وضواريه.

كم يشبهني جدا هذا النوع من الأسماك! أنا أيضا أحتاج لبعض الوقتِ كي أتنفس، عُمقُ المجتمع الذي أعيش فيه يُطْبِقُ بضغطه الشديدِ على صدري، أحتاج لأن أسبح وأرتقي، لأتنفس بعض الأكسجين النقي الخالي من زفرات الناس المريضة بالدنيا، لأطفو قليلا فوق الغيومِ، فالهواءُ نقيّ جدا هناك، واللونُ الأزرقُ... أزرقُ جدّا، جميعُ وظائفي الحيويةُ تعملُ بشكلٍ عجيبٍ جدا، وجميعُ حواسي شفافةٌ كماء البحرِ، إن لديها القدرة أيضًا كي تحملَ لون السماءِ الأزرقِ الجميل.

أحتاجُ لبعض الوقتِ لأضعَ فيه أسراري، سيفي ودرعي وبقايا كنوزي، همومَ نفسي ومخاوفي الأزلية، وذلك القناع الذي على وجهي، لا بأس

ببعض الضحك وبعض الدموعِ وبعض تمارين التصنُّعِ، تحسُّبًا لأي انتكاسةٍ أو خيبةِ أملٍ.

لا بأسَ ببعضِ الذهولِ لأني استطعتُ أن أصعدَ لأتنفس هذه المرة أيضًا، لا بأسَ ببعضِ الصمتِ وبعضِ الاسترخاءِ، وبعضِ اللحظاتِ العابرةِ من البلادةِ وتشتّتِ التفكير.

إني محتاجٌ إلى أن اشقّ عنانَ صدري بالصرخاتِ التي أمانعُ أن تصدح أمام الناس، بصوت أو بلا صوت المهم أن تخرج، رعدًا... برقًا أو كلاهما، المهمُّ أن تخرج وحسب.

أحتاجُ إلى أن أكتبَ ما تختنقُ به حروفي من الكلامِ الذي لم يعُدْ مفهومًا لدى الكثيرِ من الناس، فالحروفُ هي نفسُها نفسُ الحروف، والكلماتُ هي نفسُها نفسُ الكلمات، ولكن يبدو أن الكلامَ لم يعُدْ له قيمةٌ في سوقِ الصرفِ... إن لم تكن ذا جاهٍ وسُلطان، لا بأسَ إذن إن كان ما أكتب ذا مغزى أو بلا مغزى، لا ضيرَ أبدًا أن أكتب، ففي النهايةِ يبدو أنه لن يفهمَ كلامي أحدٌ ولن يسخرَ من هذياني أحد.

دقائق كانت أم ساعات لا يهم فعلا، أنا محتاج لبعض الصحو فقط، لبعض الوحدة والانعزال، محتاجٌ لبعضِ الانفصامِ، فالضُّعفُ الذي

بداخلي يرفض بشدة أن يُرافِعَ عن نفسه أمام الناس. محتاجٌ لبعضِ العجزِ الذي يجعلُني استرخي مُستسلِمًا أخيرًا... إلى الاستسلام.

يبدو أنني وصلتُ لآخر ما أكتب، فقد انتهى وقت تنفسي، وحان الوقتُ كي أغوصَ مُجددا في ذلك المجتمع المريض... أراكم مرة أخرى، بعد خمسٍ وأربعينَ... أخرى!

(14)

كتابة!

تمر أحيانا أيام وأيام دون أن يشق مداد القلم صفحات دفتري، ولك أن تتخيل حالتي وسط ذلك الفراغ، في وحشة شديدة تضرب الأركان.

إن ذلك الشوق إلى الكتابة يجعل من الانتظارِ اختناقا وغُربة، كم يشبه كثيرا قصّةَ زوجةٍ وحيدةٍ وصندوقَ رسائلٍ في حديقة البيت، تتعهّدُهُ كلَّ يومٍ، لعل رسالة من نصفها... تزف بعضًا من عطر الحبيبِ الغائب.

فلا تجدُ الرسائِلَ... ولا عبقَ الأحبة الغائبين، ولا تجدُ السلوى إلاّ في الرسائلِ القديمةِ تتلوها، كأنها للتوِّ وُلِدت من صندوقِ الرسائلِ البخيلِ.

في ذلك الفراغ القاتل دون كتابة، أشتاقُ إلى قصيدة أسكبها من قلبي، وأشربها كوبا من الشاي الساخن، كأني أطالع عبر زجاج نافذة المقهى المفضلِ عندي قصصَ الناس العابرين:

شيخٌ يسكنُ الحزنُ في خطوطِ جبينه...

شابٌ يتعثرُ على درب الظنون...

يدُ صغيرٍ تمسكُ بطرفِ فستانِ أمه بكل قوة، والفرحُ يملأ سماءَ عينيه...

مجموعة ضحكات تعلو بين ثلاثِ فتياتٍ يافعاتٍ... استطعن اشتراء بعضَ الثيابِ بتخفيضات مغرية!

أشتاقُ أحيانًا إلى كتابة خاطرةٍ تجمع حولي خيال أحبتي الغائبين، أناديهم بأسمائهم هذه المرة فيلتفتون إلي، أمدح معطف هذا وأشم عطر هذه، وأصر على ذاك ليشرب المزيد من القهوة، أوه! نفذت القهوة! أضحك قليلا مُحرجًا...!

ورغم أنهم لا يُجيبون، رغم أنهم مُجردُ خيالٍ يستحيلُ أن يُجيب، أواصل الحديث إليهم لأخبرهم أن الذكرى تنهش من جنبات صدري، تطبق على الضلوع بقوة، أناديهم.... لو أنهم...!

أشتاقُ إلى كتابة قصة قصيرةٍ، عن طفلةٍ صغيرة، تدللت تغنجت تململت، كما لو أنها فعلا أميرة، من يجلبُ الحلوى لها، من يُلبّي لها...طموحها الكبيرَ...!

عن ملكٍ لا يعرفُ الأحزان، يدعو يدَ الإنسانِ أن تمحو ظُلمًا حلَّ على الإنسان.

أو عن قطرةٍ ناقمةٍ على المطر، لماذا كُتِبَ عليها دوما... أن تسقُطَ مع المطر؟

أو عن أي حدثٍ شيقٍ أو حزينٍ أو بطوليٍّ، عن شخصياتٍ تُشبهني، وأخرى لا تُشبهُني، عن الخرافةِ والخيالِ، والحُبِّ والفراقِ، عن الواقعِ والحقيقة... وعنِّي.

وكمن يشتاقُ إلى حبيبته، أشتاقُ إلى الكتابةِ وأحتاجُ جدّا إليها، لألقي على جسدِ الحروفِ جسدي... تعبي... وبعض الجراحِ التي لا يمكنُ للجسدِ البشري تحملها، أحتاجُ إلى الكتابةِ لأنني أعتمي لذلك الصنفِ الذي لا يبكي، ولا يعرفُ من نفس جنسه من يشبه حالته الميؤوس منها.

كم أحتاج إلى الكتابة كل يوم... ليتني أستطيعُ الكتابةَ كلّ يوم، كل لحظة، نثرا وقصيدة، سأشتري كل دفاتر الدنيا، سأسرق كل أقلام الدنيا، لأروي اشتياقي للبكاء، للضحك، للقصص الجميلة التي أريد أن أكون جزءا منها، حتى وإن لم يكن لي فيها... دور البطولة!

(15)

زاوية

لاحظتُ مؤخرا أن زوايا منزلي قد صارت أوسع من فضاء الشوارع...

وأن خواطر صدري أرحم مليون مرة من وجوه تحترف النفاق...!

أيّ ضيقٍ كُتب لنا أن نعيش فيه؟!

وأي عصرٍ ذابلٍ المستقبلِ كُتب لنا أن نسجن فيه؟!

هناك في الزوايا، يُعادلُ احتراقُ شمعةٍ بضعة عقود من الزمن، والضوء الذي تُنتجهُ يُعادلُ ما تمُنُّ به الشمس على ظلام الأرض وعجزها، يبدو كل شيء كافيا، فلا شيء يُلهيني، لا شيء يُغريني، لي فيها من الأصدقاء الكثير، كتابٌ جديدٌ كلّ بضعة أيامٍ، كُرّاسةٌ وقلمٌ، فنجانُ قهوة لا ينضب، مُجسّمٌ صغير لبرج إيفل أهدانيه صديقٌ (رحمة الله عليه)، بضع رسائل أنوي كتابتها، وأخيرا... نفسي.

وبشيء من الانفصام المقنّنِ أسمحُ لها بمحاكاة جميع الأصدقاء الذين أحتاجهم، نعمِ السلوى هي، ونعم الجليس!

في داخلي أحلامُ مجتمع أراد أن يتشكلّ، إن نفسي صارت مجتمعًا مستقلا بذاته، إنني أمتلك اكتفاءً ذاتيًا من الناس، من الأحلام، من

الأصدقاء، إنني أملكُ غرفة خلفية بها جميعُ الأزياءِ، والكثيرُ من السيناريوهات والشخصيات.

يُقالُ أن البقاء دون كلامٍ لفترة طويلة يُفجِّرُ يُنبوعَ الحقيقة، لأن العقلَ حينها يستعيرُ حاستيّ النطقِ والسمع، فتأخُذُ الرُّوحُ زمامَ الكلام في حالةِ الصمتِ، وتفتحُ لأصواتٍ دُفِنتْ تحت سنينِ الكبتِ مسارحًا ونوادي.

حقًّا! وهل هنالِك أعمقُ من الروح؟ هل هنالك أصدقُ من الروح؟ من غيرها يستطيعُ الانغماسَ في حقيقةِ الإنسان؟

يُقالُ بأن بعضًا من الوحدة يقتلُ خزائنَ الذاكرة، وحيث لا توجدُ في زوايا منزلي مرايا، ولا زجاج عاكس للوجوه، أرتاحُ جدا في معّية نفسي، فلا ينبض قلبي إلا لقلبي، ولا أنظم الشعر لجاحد، لا أحتاجُ للموسيقى، لطمس نشاز أبواقِ النفاق.

حقّا؟ وهل هناك قيدٌ أشد من الذكريات؟ هل هناك سجنٌ أشد تعذيبا وظلمًا من القضبانِ التي ترفضُ أن نستمر إلى الغد؟

من غيرهُ النسيانُ الذي يستطيعُ سحبي من هُراءِ الذكريات وتفاهة السجلاتِ القديمة؟!

كلُّ ما أحبّ سماعه أسمعُهُ هنا، همهماتي، طبطباتُ رؤوسِ أصابعي، صوتٌ من الماضي الجميل يُنادي، صوتُ الشمعةِ تلفحُها زفراتي، وذلكَ الهدوءُ الذي يلي تذمُّري حين أشعرُ بالوحدة.. يهمسُ مردّدًا نشيدتي المفضلة: فلا ينبض قلبي إلا لقلبي، ولا أنظم الشعرَ لجاحد!

(16)

لماذا؟

لماذا التجارب تخسرُ دومًا؟ وتُصبحُ حول الفؤادِ خرابًا؟ سؤالٌ يُراوِحُ عتباتِ الجوابِ، يجوسُ خلال دفاعاتِ صبري، يتقلبُ على أكفّ الحسرة، سؤالٌ يستعصي على مداركي دومًا.

إن عواطفي ليست سلعة أخشى عليها من الركودِ، لذلك أستثمر مشاعري فيمن أحب، دون دراسة للجدوى، ودون تحديد لمتطلباتِ من أحب، ودون دراسة لظروف استثماري الأغلى، أجربُ مع الذين أحبُهم دون شروط.

رغم هذا، تُردُّ سلعتي الأغلى، يُرفض استثماري الأغلى، وأخسرُ مجددا رُغم عديدِ التجارب! لماذا؟

إن عواطفي ليست حديقة وردٍ أخشى عليها من الأقدام وكثرة الأيادي، فأنبتُ لهم رغم برودِ المشاعرِ وقسوةِ التعبير، دون أن أتخيل شكل الحديقةِ بعد رحيلهم، ودون أن أضعَ سياجًا يحتويهم ويحتويني، أبث عبق حنيني دون شروط.

لكن ورغم هذا... يُداسُ الوردُ، وتتناثرُ أشلاؤُهُ بين يُحُبني أو لا يُحبني، ثم أخسرُ في الأخير... مُجدّدا رغم عديدِ التجارب... لماذا؟!

ومثل عالمٍ مجنون أقوم أجربُ... وأجربُ... على نفسي كفأرِ مختبر، وكلي يقينٌ وإيمانٌ بنجاحِ التجربة، فكلُّ المعطياتِ صحيحة، والنظريةُ التي أطبقُها صحيحة، والمنهجية أيضًا صحيحة!

ودونَ أن ألتفتَ إلى هامشِ الضرر، ودون أن أخشى على نفسي من الهلاكِ والأذى، أواصِلُ تلك التجاربَ المجنونةَ دون ضمانات، ودون التفاتٍ للضرر الكبير الذي ترتبَ أصلاً من التجارب السابقة.

رغم هذا لا تنجحُ تجاربي، وأفقدُ الكثير من الخلايا والدماءِ، والكثير من وقتي وحياتي، وأخسرُ مجددًا كما كلّ مرة، رغم صحة اعتقادي وسلامة التفكير، أخسرُ رغم عديدِ التجارب... لماذا؟ !

** لماذا **

لماذا تراك نسيتَ الجَميلا

وترفضُ ودّي ومنح القليلا

لماذا أراكَ تعيشُ سعيدًا

وتُردي الفؤادَ ذليلاً قتيلا

لماذا التبسم حين تراني

إذا كنتَ أصلاً تنوي الرحيلا

* * *

لماذا فتحتَ أمامي المجالا

لماذا رسمتَ لقلبي المحَالا

لماذا تعمّدتَ جَرّي إليكَ

كسير الفؤادِ... ألُوكُ السؤالا

* * *

لماذا... لماذا وماذا فَعلتْ؟

ولما سألتْ...

فتحتَ ميازيبَ دمعي

ورُحتْ...

ألِفتَ عذابي لديكَ فهُنْتْ...

فأرجعُ أُلقي إليكَ السؤالا

لماذا... لماذا قتلتَ السؤالا؟!

قل لي لماذا كذبتَ الوصالا؟!

فأبعدتَ نجمك عن مقلتيّ

ولوثتَ بالصد بحرا لديّ

لطالما فيه... غرقنا سويا

* * *

لماذا خرَسْتْ...حين سألتكَ ...

ثم عبَسْتْ؟!

ألم تدرِ أني فعلا ملَلَتْ

فعلا ملَلتُ... مللتُ السؤالا

قل لي لماذا كذبتَ الوصالا؟!

(17)

أرقُّ ما خلقَ اللّهُ

أن تكون رومنسيّا لا يعني أنه بإمكانكَ إسعادُ امرأة، إن الأمر يتطلبُ أكثر من ذلك، أعمق من ذلك، عكس ما كنت أظن من قبل، حتى تعلمتُ بالطريقةِ الصعبة!

إن محاولة إسعاد امرأة يشبه محاولة إرضاءِ طفلةٍ صعبة المزاجِ بحبّتي حلوى، حتى إذا ما زال طعمُ السكرِ من ثغرها، وجدتها تتدلّل، وتتغنّج، وتتململ، هذا في رضاها. أما حين تزعلُ طفلتكَ، صدقني لن تكفي سكاكِرُ الدّنيا، ولا حتّى حُقولٌ من غزلِ البناتِ.

إنّ أعماقَ المرأةِ عصيةُ الولوجِ، صعبة الغوص، بل هي أعمق ما يكونُ من العُمقِ، هي أعمقُ من أخدودِ ماريانا [1]، هي أعمقُ من الجُرحِ، بل أعمقُ من أعمقِ فكرةٍ يُمكن أن يُخبّأها رجل.

إنّ أعماقَ المرأةِ تُشبهُ صورة حزينةً، هل يمكنُكَ أن تمسحَ الحُزنَ من هذه الصورة؟ كيف بالإمكان أن تمسح الحُزنَ من وجهِ امرأة؟ كيفَ

---

(1) هو أعمق نقطة في سطح الكرة الأرضية وتقع في غرب المحيط الهادي. يبلغ طوله حوالي 2550 كيلومتر وعرضه 69 كيلومترا. يصل عمق أبعد نقطة فيه حوالي 11.03 كيلومتر تحت سطح البحر.

يُمكنُكَ أن تجعل الشّمسَ تُشرقُ قبلَ موعدِ شروقها؟ كيف يمكنك أن تعودَ يومًا إلى الوراء؟

تعلّمتُ بأصعبِ الطرق، ودونَ مساعدةِ أنثى، أن المرأةَ في الحقيقةِ لا تحتاجُ إلا للمسة، ولا أقصدُ اللمسة الحسيّة العضوية وفق مفهوم الرجال، بل أقصدُ أنها تحتاجُ إلى انفعال رجلٍ يفهمُ متى تُصبحُ المرأة طفلةً، ومتى تُصبحُ مخطوطًا آشوريّا[1] يحتاجُ إلى عالمٍ فذٍّ يفُكُّ لُغزهُ العَصيّ.

إن المرأة تحتاجُ إلى الرّجُلِ الذي يبقى كما هو رجُلاً، نصفًا، بعضًا، شيئًا من فؤادها، رجُلاً لا يتصرّفُ مع النساءِ كالنساءِ، سَنةً أحاديّة الفصلِ مُشمِسةً على الدوامِ.

تعلمتُ أن المرأة لم تُخلق من الرجلِ لتُصبح حاجة مُلحة أحيانا، وعبئًا ثقيلاً في غالبِ الأحيانِ، وأنها خلقت من الضلعِ الأعوجِ لتشعرَ بضعفه وحاجته إلى الكمالِ الذي لا يستقيمُ إلا بعودة القطعة المفقودةِ إلى الأحضان.

لقد خلقت من الأضلاعِ كي تكونَ صدرًا ودرعًا لقلوبنا... لا سِجنًا لرغباتنا نحنُ معشر الرجالِ.

(1) نسبة إلى أول دولة قامت في مدينة آشور في شمال بلاد ما بين النهرين والتي تعرف اليوم بالعراق.

تعلمتُ أنها لم تخلق منه ليشعُر بالنَقصِ بل ليشعُرَ بالكمالِ، وليشعُر في كل مرة يعودُ فيها إلى البيتِ وإلى أحضانها... وكأنه وجد أخيرًا ما كان يبحثُ عنه بين السنين.

وآدم عليه السلام، رغم ما كان يحيط به في الجنة من نعيم مقيم، رغم أن تلك الفردوسُ تسلبُ العقول والألباب، اللذة فيها كاملة، والعطاءُ غير مجذوذ، ولا وجود للأماني فيها، بل هي إرادة آدم وتحقيقٌ من الله عز وجل، لكن ورغم كل هذا فقد احتاج إلى رفقة، فكانت حكمة الله بالغة حين كتب على الرجل أن تكون رفقته امرأةً من بعض صدره، وكأن سياق الحال هكذا: كل جنة دون امرأة فراغ في فراغ، وكل شقاءٍ في معية امرأة جنة في باحات منازلنا.

تعلمتُ بالطريقةِ الصّعبةِ أن المرأة أرقُّ ما خلقَ اللهُ في هذه الدُّنيا، وإنّي لأعجزُ حين أحاولُ إيجادَ تشبيه لها!

أهي مثلُ خريرِ جدولٍ عذب؟ لا... أرق!

أم تشبهُ سُقوطَ ورقة صفصافٍ على الرَّصيفِ؟ بل أرقُّ!!

أم مثل ساري هِنديٌّ حريريٌّ؟ لا والله بل أرقُّ!!!

ليسَ هنا أقولُ كيف تعلّمتُ، ولكن... الحمدُ للهِ أنّي تعلّمتُ، لأن حبيبتي تستحقُّ فعلاً، تستحقُّ جدًّا أن أكونَ رجُلاً...

(18)

ذكرياتُ صِبا

أذكرُ عندما كنتُ صغيرًا، كانت حياتنا شديدة البساطة، كان كلُ شيء جميلاً، كانت الحكاياتُ العجيبةُ الغريبةُ تصنعُ في استوديوهاتِ خيالنا، والراوي هو صاحب أحنِّ صوتٍ وأمهرُ حائكٍ للكلمات... أمي الحبيبةُ.

كانت تحكي لنا القصة مليون مرة، وتفاصيل ولادتنا مليون مرة، وكنا لا نمانع تلك المليونِ مرة على الإطلاق، كم أشتاقُ إلى تلك الحكاياتِ الجميلة وعبقِ الأمسياتِ الغابرة، ولكم أشتاق إلى حجر أمي... وأناملها التي تنافسُ برشامة النوم بمسحة أو مسحتين... على شعر ذلك الطفل المسجى...

كم أشتاق إلى طبخ أمي، وصوت أمي الذي يوقظني كل يوم من أيام الدراسة، كم أشتاقُ إلى هذا الكم الهائل من الاهتمام المبالغ فيه، حتى بأتفه تفاصيل حياتي.

أذكرُ في صباي... كنتُ حينها الوحيد الذي له الجرأة الكافيةُ كي يقترب من فخامة الرئيس، وأي رئيس، كنت الوحيد الذي يجرؤ

على مداعبة ذلك الرجل الشرقي التقليدي الذي لا يضحك، ولا يقبل مناقشة القوانين والأعرافِ، فكل ما يقرره يكون، والويل والثبور لمن يخالف الرئيس، لكنه كان ينزلُ من على كرسي عرشه في حالة واحدة فقط، تلك الحالة قد حُفرت عميقا في سجلاتِ ذاكرتي ووجداني رغم كل تلك السنين. كان المسكينُ يتجلى في هيئته الملائكية كلما سقطتُ مريضًا، كنتُ أفرحُ جدًا رغم المرض، حين أرى أبي يبث هذا القدر العظيم من الحب والحنان...

لا زلتُ أذكر حين كُسرت قدمي اليسرى، وكيف خانت عيناه أعراف الرجولة، وبروتوكولات البيت، عندها علمتُ علم اليقين، أنني أكثر من مجرد حاجة ملحة لزيادة النسل، وسقاية شجرة العائلة، وأنني أكثر من مجرد نملة تعيش في مجتمع نمل، لها دور وواجبٌ وفقط... علمتُ علم اليقين ماذا يخبأُ ذلك الرجل الشرقي... في ذلك الصندوق الأسود بين جنبيه!

وتلكَ الحارة... وأصدقاءُ الطفولة، وألعابُنا التي كانت تصنع على أعيُننا، وتلك المغامرات والشقاوة بين بساتين النخيل وأزقة الحواري الضيقة، لستُ أنسى اجتماعنا في البيتِ الوحيدِ الذي كان يملك التلفاز حينها، نتابع مسلسلاتِ الكرتونِ ونحفظُ جميعَ شاراتها، كم

كانت بدائية جدًا تلك الحياة آنذاك، لكن لم يكن للمللِ فيها حضور، ولم يكن للحزنِ والفراغِ...فينا حضور.

وأيام الدراسة... وأصدقاء الدراسة، وتلك الحجراتُ التي تلقينا فيها الأدب قبل الحروف الأبجدية، والاحترام قبل الرجولة، لازلتُ أذكرُ رسوماتنا على جدران الفصل، وتلك المدفأة القديمة المهترئة التي تبث الدفء ورائحة المازوت، لكننا لم نكن حقا نبالي، لأن الجيل الذي درّسنا في ذلك العصر، علمنا أن جدران الفصل الحقيقي هي جماجمنا، وأن عقولنا أولى بالدفء من أجسادنا...

كم أتعرضُ للتعذيبِ كل مرة أمُرّ من هنا، هنا لعبنا، هنا تشاجرنا، تصالحنا ثم ضحكنا، هنا مجلسنا وملعبنا، هنا مدرستنا، هنا عالمنا... هنا أطلالُ الطفولة... هنا ذكرياتُ الصبا... وأحلامُ رجلٍ يودُ لو يعودُ لذلك الزمن... ويعودَ كل شيء كما كان... جميلاً... بسيطًا... بريئَا!

(19)

الوردُ لا يزرع على الاسمنت!

هنالك بعض الأمور التي يُعدُّ حدوثُها ضربًا من المستحيل، ولا يمكن لأي واقع أن يُجسدها بأي حالٍ من الأحوال، مهما حاولتُ وحاولت، كأن يسمع الناسُ مثلاً ما أريدُ أن أقول!

أنا أستمعُ لهم حتى يملّوا، فإن تكلّمتُ... ملّوا!

وكمن يزرع الوردَ على الاسمنت، ألقي كلماتي عبثًا... على أذنٍ أتقنت فن التجاهل، وأبدعت في فن العنادِ، بل وتفوقت على الأثير الذي يُقالُ أنه لا يشيخ ولا يتعب.

وبرغمِ تضاريسِ وجهي الصّعبة حين أحاضرُ، وبرغم لغة الجسدِ التي أستخدمها لأسمِعَ من به صممٌ، لا يزالُ ذاك الذي أمامي معقودَ الحاجبين، منكمش الجبين، ينفخُ ويتململُ ويراقبُ ساعة اليد!

ما الذي يجعلُ الإنسانَ بهذا القدرَ من ضحالة التفكير؟ وسطحية الإدراك؟ وقمة الأنانية؟!

ما الذي يمنعه من إلانة الجانب؟

ما الذي يمنعُه أن يرى أن هنالكَ كياناتٌ أخرى من نفس جنسهِ وأنها لم تنقرض بعد؟!

أم تُراهُ يعتقدُ أنه صوتٌ وأني مجردُ صدى؟

أنه مسرح كبيرٌ وأنا مجردُ واحدٌ من جمهور غفير غبي يصفقُ لهُ رغمَ تفاهةِ الخطابِ وسماجةِ الأسلوب؟!

سامحوني إن اقتطعتُ جُزءًا من حياتكم إن جئتُ أحدّثُكُم، سامحوني لأنني لا أبرِّرُ لأنجو، بل لتنجو مكانتكم عندي، لا أبرِّرُ من أجل فرصة أخرى، أنا هو الفرصة الكبرى، أنا لا أنفعلُ لأني أغضبُ، بل لأريكم كم أهتمُّ جدا بكم!

الوردُ لا يُزرعُ على الإسمنت، كلماتي ليست طفلاً غير شرعيّ يناشدُ عتباتِ المنازل، كلماتي جسرٌ لا كسر، أمدهُ لكم إلي.

كلماتي انهمارٌ لا انهيار، انهمارٌ يغمرُكم بالحبّ الذي يفيضُ عن حاجتي إليه، كلماتي... كلماتٌ فقط وليست حربًا.

وكما قلتُ سابقًا، للوردِ أحضانٌ يحنُ لها وتَحفَلُ به، لذلكَ اخترتُ أن أزرع كلماتي على سطورِ دفتري، فهو الوحيدُ الذي يعانقُني، حينما أنتهي من آخر كلمة أخطها، هو الوحيدُ الذي يحفظُ جميعَ ما أقولُ.... ويفهم!

(20)

هلاّ صنعتَ فراشة؟

كثيرًا ما استوقفني تطور الفكرة من شطحة خيال إلى شيء إبداعي ملموس، في رحلة تطورٍ عجيبة تشابهُ ملابساتُ حُدوثها دورة حياة الكائناتِ الحية.

والذي شد انتباهي في الأمر كله هو تقلبها على الرفض والنقض، والنقد والتصحيح والتنقيح مع قليل من لظى التعب، وشيء من مُرّ الصبر، لتخرج أخيرا في أبهى صورها، باسطةً أجنُحَها فوق رؤوسِ أصحابِ البلادة، ولسانُ حالها يقول:

عِشْ ومُت أيها الدودُ دودًا... فأنا قد أصبحتُ فراشة!

فهلاّ صنعتَ فراشة؟!

(21)

بصمة

إنّ لكل إنسان بصمة تختلف اختلافا عجيبا معجزا عن أي إنسان آخر. والأكثر من ذلك أن الإنسانَ في حد ذاته بصمة مميزة، تجعله مختلفا عن الجميع، ولو تشابهت الوجوه والميول، والسلوك والمزاج، والايديولوجية وغيرَ ذلك من الأمور.

أنا لن أجدَ مثل أبي، ولا مثل أمي، لن أجدَ مثل شيخِ حارتنا، أو حارسَ مدرستنا، ولا مثل صديقي الراحلِ زكريا (رحمهُ الله)، كل نسخة بشرية لها من الخصوصياتِ والتميّزِ ما يجعلُ التطابُقَ مع الغيرِ مستحيلاً، تميُّزٌ يأتي بأثرٍ مختلفٍ تمامًا عن باقي النسخِ، هنالك الكثيرُ من الشعراءِ، غيرَ أنه هنالك نزارٌ واحدٌ وأخطلٌ واحدٌ ودرويش واحدٌ لا غير.

هنالك الكثيرُ من العباقرةِ المذهلين لكن لا يوجدُ اثنان مثلُ آينشتاين ولا نسخة أخرى طبقُ الأصلِ مثل ستيف جوبس[1]

(1) مخترع عبقري وأحد أقطاب الأعمال في الولايات المتحدة. عُرف بأنه المؤسس الشريك والمدير التنفيذي السابق ثم رئيس مجلس إدارة شركة أبل.

يخلقُ من الشبه أربعين، قد يولد ستة توائم بنفس الملامح وبتطابق شبه تام، وقد تصادفُ شبيها لك حد الذهول، ولقدُ رأيتُ بأم عيني من هو صورة طبق الأصل عن جد أبيه، ورأيتُ صورًا لمشاهير وأخرى لأشباههم الذين ينتمون لعقود سبقت عصرهم بكثير، لكن الصور لا تشفُ دومًا عن بواطن النفوس، وتمايز الأفكار وتطرفها على تجانس الصور، كلّ كان له رأي وميولٌ وانطباعٌ عن الحب، والحياة والواقع.

ثلاث فوائد خرجت بها من بصمة الإنسان، وأقصد هنا البصمة الروحية لا بصمة الأصابع:

- كل بصمة تفقدها، أنتَ في واقع الأمر تفقد جانبا من روحك ومنك، لا تُعوّضُ بغيرها مهما بحثتَ.

- كل إنسان يشكل مدرسة مستقلة بذاتها، كتابا يتفردُ بعنوانه، يتميزُ بمضمونه، له ثقلٌ وأثر خاصٌ في الإرث البشري.

- مهما حاولتَ أن تقلدَ غيرك وتعيشَ في جلبابه متشبهًا او متأسيًا بقشوره، فلن تكونه ولن تصيره مهما فعلت، فأنتَ أنت... مهما تلونت...!!

(22)

سعادةٌ أم أفيون؟

كُنتُ دائمَ التفكيرِ في السعادة، دائمَ البحثِ عنها، لكن وبعدَ بعضِ التجاربِ خلصتُ أخيرًا إلى حقيقة أن دربَ السعادة لابُدّ أن يشُق قنطرةِ الألم، وأن لذة الراحة لابُدّ أن تُرتشفَ من كأس الصبر، وأن الكثير من الناسِ يعتقدُ أنها موجودة بين زوايا بيت وسيع، أو من خلال زجاج سيارة فارهة، أو بين أحضان فاتنة حسناء.

يعتقدُ الكثيرُ من الناسِ أن تلك اللحظةِ من إشباعِ الذاتِ هي السعادة، وأن النشوة الحاصلة تستحقُ ذلك التعب، تستحق الثمن الباهظ من الصحة، بل تستحق خلع قميصِ الإنسانية إن تطلب الأمر ذلك...

إن اللذة لحظةُ احتراقٍ ذاتية... تذوب فيها جميع الإيديولوجيات والقناعات، تضطرب فيها جميع المقاييس ليصبح المنطقُ مجرد أحجية ليس لها حل، بل يصبح المنطق جنونا وارتجاجًا يصيب العقل، ليلقي به في غيبوبة اللذة... وعمى اللحظة.

ولحظة خلع قميص الإيمان، وغلق ورشة العقل هي لحظة استسلام، هي لحظة تسليمِ القوات إلى المذبحة، إن الشهوة أرض خسائر لا أرض شهادة، إن اللذة في غير قالبها الصحيح ما هي إلا انتكاسّ من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان، إلى بهيمية الطبيعة التي لا تشعر بشيء ولا تحس بشيء، ولا تعترف بشيء سوى مصلحة وجودها مهما كانت الطريقة لفعل ذلك.

انظر إلى أنثى العنكبوت الذئبية كيف تفعل بالذكور بعد انتهاء عملية التزاوج، وكيف تأكله رغم أنه بذر فيها من الحياة، لتكافئه بالموت...

أنظر إلى مجتمع الضباع... وكيف يسرقون تعب الفهد، فتكون الفريسة فريستهم... وللفهد جولة أخرى من التعب...

إن الإنسان أرفع من أن يصير عبدا للشهوة واللذة، إن الإنسان ليس كما قيل عنه... حيوان عاقل ناطق، بل هو كيان مستقل عن كل الأجناس الأخرى، لم يخلق لهذا العبث... وفوضوية الغايات.

إن الحقيقةَ المرة تقول أن الناسَ يخلطون بين مفردتين... يتشابهُ طعمُهما، ويختلفُ عُمرُهما.

إن السعادة والشهوة لهما طعم واحد، طعم يجعل ابن آدم يضيع في دهاليز الوقت، طعمٌ يجعل الأيامَ تمرُّ على سِككِ الثواني.

والشهوة بطعمها الآني لا تمثلُ السعادة في شيءٍ... إلا كتوصيفٍ للسعادةِ الأبديةِ التي جُعِلتْ مصيرًا للمتقين، إن الشهوةَ ليست سوى لذةٍ لا تدومُ طويلاً في دنيا تعُجّ بالمنغّصات، ولا تختلفُ في شيءٍ عن الأفيونِ [1]، يَضيعُ فيهما العقلُ والمنطقُ والمصلحةُ والطريق... وخطُّ النهاية!

﴿ حُفت النارُ بالشهوات وحُفت الجنةُ بالمكاره ﴾

---

(1) هو العصارة المجففة لثمار نبات الخشخاش، لديه رائحة قوية مخدره وطعم مر. ويحتوي على قلوانيات كثيرة أهمها المورفين، تم التعرف عليه في الأزمنة القديمة.

(23)

الزُهَيْراتُ الشذية

إنّ أجمل اللحظات التي أتوقُ حقًّا لها هي تلك اللحظاتُ التي تُزهرُ في شتاءِ الفشل، هي ذلك النجاحُ الذي لطالما انتظرتُه وجنّدتُ له من الوقت والصحة، ومن القلقِ والإيمانِ والصبرِ الكثير.

تلك الزُهَيْراتُ الشذيَّةُ تستحقُ كل ما أبذلُ ولا شك!

(24)
الحزن

مرحبا، صباح الخير، عمتَ مساءا، كلماتٌ لم أسمعها منذُ زمنٍ طويلٍ جدًّا، إلا من ذيّاكَ الصديق القديم... صاحبِ الوجهِ الوحيدِ الذي بقي من خارطة الذكرى، صاحبِ الوجهِ الذي لا يُشرقُ أبدا، لكن ورغم هالة الظلامِ التي تستبدُّ بي وبما حولي، يبقى الحزنُ هو مؤنسي الوحيدُ، هو لي كل شيء.

وفي غرفةٍ مُغتصبةِ الأضواء، يزورني الحزنُ في كلّ نوبة شوق، في كل طيفٍ ينسلُّ من ستائرِ شُرفتي، من كلّ نهاية فصلٍ أكتبه في هذا الكتاب، بدون سابقِ إنذار، ومن دون إعلامٍ مسبقٍ.

كنتُ أفتحُ عيني كل صباحٍ على هذا الكيانِ الجاثمِ على صدري، حزنٌ يزنُ حوالي مليون عامٍ من التعبِ، من الأسى، من الضياعِ والخسائرِ، وبلا خَيارٍ أمامي ألقي تحية الصباحِ على ذلك الحزن، وفي فنجان قهوتي أضعُ قطعتي حزنٍ، وأقرأ عناوينَ الحزنِ في كلّ صفحاتِ الجرائدِ، هاه! هذا الخبرُ يبدو الأقلّ حُزنا! خبرٌ جيّدٌ إذن!

وبعدَ نفحةِ أملٍ وُلدت بالأصلِ ميتةً، تعودُ جدرانُ الغرفة للونها الأول، للونها القاتم، للونها الحزين، وتختفي أصوات أهلها الغائبين، كأنهم خرجوا؟ سأخرجُ إذن لعلّ الألوانَ لا تزالُ هناك، خلفَ الغيومِ الداكنة في السماء، في العشبِ الذي نما على حاشية الطريقِ... لما أمطرتْ قبلَ بضعة أيام، أو في الثيابِ التي صارت هاجسَ المارّة من حولي.

مهلاً! كلُّ شيءٍ رمادي؟ كلّ شيء أصبحَ قاتمًا؟

أيُعقلُ أن تختفي الألوان؟ أيعقلُ أن للحزنِ هذه القدرة العجيبةُ؟ أن يقتُلَ الألوان؟

أن يجعلَ الإنسانَ قادرًا على العيشِ بلا ألوان؟

إذن، فلَوْنُ الجدرانِ لا يختلفُ البتّةَ عنِ الدنيا... خارجَ أسوارِ بيتي الحزين!

سأعودُ إذن إلى حظيرة الأحزان وأنتظرُ المساءَ، لأخبي فَراشي الطلاءِ وأوراق الزينةِ وشموعَ كعكةِ الميلادِ.

سأعودُ إذن إلى حظيرةِ الأحزان وأنتظرُ المساءَ، لأحزنَ جدّا، لتنفلتَ قصةُ الحُزنِ من العينينِ، مُجدّدًا... بلا استئذان.

ولأنكِ يا سماء كوني رحلتِ، لأنكِ يا حُقولَ الحبقِ والريحانِ اختفيتِ، صارت الدنيا بلا ألوان، لأنكِ يا ذكرى هوانا رحلتِ، صارت خارطةُ الذكرى بلا ذكرى، بلا عنوان!

(25)

أنا والليل

أنا والليلُ، قصة حبٍّ لا تعرفُ النكباتِ، وموعدُ غرامٍ لم تشهد مثلهُ أدفأ زاوية في مطعمٍ... يضمُّ عاشقيْنِ... أنا والليل مشهدٌ لم تشهد مثله شرفةُ جولييت، ولا سماء البدو في عينيّ عنترة.

وكما تدبّ في الجسد رعشة الحياةِ مع أول خيوط الفجر، فإن الروحَ تجري عندي عكس مواعيد الجسد، إن روحي تعودُ إلى الحياة حالما تسكُنُ الأصوات في حضرةِ الليل البهيم، فتنطلقُ شرارةُ الإحساسِ إلى أعماقها، وتُصبحُ كل الحالاتِ النفسية التي عشتُها خلالَ النهار مجردُ هذيان عاشقٍ يحن.

كيف أشعر بالبردِ بعد تيبُسِ الأطراف؟ كيف أستمتعُ بالنهارِ وقد جُعِلَ الجسدُ رهنًا بخيسَ الثمنِ في مفاهيمِ إدارةِ الأعمال، وعلى الملصقاتِ الجداريةِ وقواريرِ العطر وكلّ السلعِ الباهظةِ والرخيصةِ على حدٍّ سواء!

إن روحي لا تشعرُ بالعالمِ الضيقِ التعيس الذي يغرقُ في المدنيةِ الكاذبة، إن روحي لا تكادُ تسمع شيئا سوى أصداءِ الصفقاتِ وضجيجَ أبواقِ السيارات، وعروضًا مثيرةً كثيرة التدليسِ.

كيف أشعرُ بدفء الشمسِ وحولي هذه الأمواجُ العظيمة المتلاطمةُ من الموتى الأحياءِ، كيف لي أن أشعُر بالرغبةِ في ألا أكونَ كيانًا غريبًا غامضًا يُهرطقُ بما لا يفهمُ الناس؟

كيف لي ذلك وأنا لا أرى تجسُّدًا للروحِ في أي شخص، ولا أرى غيرَ آلاتٍ تسعى وآلاتٍ تهترئ وآلاتٍ لا تبكي؟ !

إن الليلَ بالنسبة لي شيءٌ مختلفٌ تمامًا، فخلف ستائر الليلِ تولدُ لحظاتُ من الدفءِ، ويصبحُ الأثير نظيفًا خاليا من الصدى، حينها تصبحُ روحي سيدة المسرح، وجوارحي جمهورُها الوفي الذي يداومُ الحضور.

في عالمي الصغيرِ لديّ ألف سببٍ للعيش، وألفُ سببٍ لإسقاطِ الأحكامِ العرفيةِ، ورغم ضيق مساحةِ غرفتي، إلا أنني لا أشتكي كما يفعلُ أصحابُ الإقامة الجبرية، إن حدود غرفتي تزولُ وتتلاشى في اللحظةِ التي أفتحُ فيها صندوقي السحري، إلى العالمِ المذهلِ الذي لا يستجيبُ للمنطقِ والمستحيل، وهذا لا يحدُثُ إلا في حضرة الليل... حينما أفتحُ صندوقَ هواياتي المفضلة....

لدي الكثيرُ من الهواياتِ التي أحبّ ممارستها في حضرته، ولا شك أن الكتابة هي مفضلتي، فتارة أكتبُ شعرا... وتارة أخرى أكتبُ نثرا.

هنالك زحامٌ شديدٌ للأفكارِ داخل عقلي، زحامٌ يحتاجُ إلى تنفيس، وأمنياتٌ مستحيلةٌ تودُّ لو تُلقى على قارعةِ السطورِ.

يُقالُ أن الكتابة تجعلُ من الممكنِ أن يصيرَ المستحيلُ مشهدًا، ولأن الأحلامَ أرضٌ محرّمة إلا على الأرواحِ، إذن من الممكن أن تعيش روحي بعضا من المستحيلِ بين سطور ما أكتبُ، وأنا بالطبعِ لا أكتبُ إلا ما أحلمُ به، وليس ذنبي إن كانت جُلّ أحلامي عصيةُ التحقيقِ، فالمدنية التعيسة التي تُسارعُ نبضَ النهارِ لم تترك بعضا من النبضِ في قلوب الناسِ.

وبينَ حياةِ الجسدِ وحياةِ الروحِ، ليس هنالك وجهٌ للمقارنة، أنا أعشقُ الحالة النفسية التي أعيشها ولا أهتمُّ بما يقوله الناسُ، إنني أحبّ العيش في الأعماق، أو ليسَ كلُّ نفيسٍ يولدُ من الأعماق؟ الماسُ والذهبُ والمرجانُ واللؤلؤ والياقوتُ وحتى البترولُ.

ولأن روحي لا تحيا إلا في هدوءِ الليل، فإني مُقاطعٌ لحياةِ الصخبِ، وألسنةِ الخشبِ، ووجوهٍ بأقنعةِ حفلٍ تنكريٍ... تضعُها طوال النهار... طوال السنة.

(26)

عرسٌ وميعاد

استيقظتُ هذا الصباحِ على وقعِ المطرِ، وعلى أصواتِ تكتكاتٍ خفيفة تُغازلُ نافذةَ الغرفة، كأنها تتسابقُ مع المنبِّهِ لإيقاظي.

للحظةٍ ما أشعرني تهافتُهما عليَّ بشيء من الطُّمأنينة، وكأنه لا يزالُ هنالكَ من يهتمُ بي!

جهزتُ نفسي وانطلقتُ في يومٍ عملٍ جديد، حيث لا يزالُ الصبحُ مرتديا عباءة الليلِ البهيم، وكانت بعضُ القطراتِ لا تزال ترفضُ الانصياعَ للأوامرِ، فتسقطُ في منتهى الرقةِ، في منتهى الهدوء، وفي منتهى الفرحِ.

دخلتُ إلى مكتبي، وعقلي وقلبي يتلهّفانِ إلى الكتابة مُجددًا، فقد مضت بضعةُ أيامٍ دون أن أجِدَ شيئًا أكتُبُ عنه.

جلستُ مقابل لوحةِ المفاتيحِ وعلى يساري قهوةٌ سوداء، كي تُذكّرني بجمالِ العيونِ العربية، فلطالما كانت مضرِبَ الأمثالِ في الحُسنِ والسحرِ والجمال، من يدري... لعلّها تمنُ عليّ بشيء من الإلهام.

كلّ شيء حتى الآن يبدو مثاليا جدًّا، نفسيةُ مرتفعةٌ وروقانٌ نادرُ الحدوثِ، حقًا... لا يمكنني أن أطلب أكثر!

مرّت ساعتان كاملتين وأنا أحدّقُ في لوحةِ المفاتيحِ، وفي العيونِ العربيةِ، لكن أصابعي لم تنبس ببنت حرف!

أوليسَ المزاجُ الجيدُ والجوُّ المريحُ يُساعدانِ على الكتابة؟ أو لم يقولوا أنّ الإلهامَ يأتي في مثلِ هكذا ظروف؟

لم يسبق لي أبدًا أن وجدتُ نفسي في مثل هذه الظروف، وكأنني عريسٌ يُزفُّ في موكبِ الملوكِ، أرتدي طقمًا أبيضًا كأنما خِيطَ لي من السحاب، مُمتطيًا عربةً تجُرّها الخيولُ وكأنني نبيلٌ من نبلاءِ يورك شاير زمانَ الإقطاعِ.[1]

كأنني عاشقٌ جالسٌ على كرسي الحديقةِ يتأهّبُ للموعدِ الأول، أحمِلُ الوردَ وعلبةً صغيرةً تُخبّئ مفاجأة جميلة، وكل هنيهةٍ أتفقدُ ياقةَ القميصِ ولمعانِ الحذاءِ، وجهلَ ساعةَ اليدِ بوقتِ وصولِ حبيبتي.

لكن شيئا لم يحدث، فلا العروسُ أتت... ولا الحبيبةُ جاءت، لم يحدث ذلك العرسُ ولم يحصُل ذلكَ الميعاد!

---

(1) مقاطعة إنجليزية قديمة.

تضايقتُ جدًّا، كلُّ هذا الفرح الذي أشعرُ به ثم لا أجدُ له سبيلاً إلى السطور، أليسَ من المفترضِ أن ينطلقَ ذلك الفرحُ دون قيدٍ ليسيلَ نهرًا من الكلمات، أليسَ من المفترضِ أن أستطيعَ أن أصفَ الألوانَ التي أمامي لونًا لونًا؟ أم أن كل ما أشعرُ به لا يصلُحُ للكتابة؟ أم أنني لا أعرفُ الكتابةَ حينما أكونُ في قمّةِ الفرحِ؟

وبدأت تلكَ الحالةُ النفسيةُ التي ألفتها دومًا بالزحفِ مجددًا، حالةٌ من الكبتِ التي دائمًا ما تنتهي بصفحةٍ أو صفحتين، ووجدتُني مُجددًا أكتبُ وأنا في قمّةِ الحزنِ، لأنني لم أستطع توثيقَ الفرحِ الذي استعذبتُه في نصف يوم، بل قُلْ في أقلِ من رُبعِ يوم!

سخرتُ من الوضعِ في صفحتين، ثمَّ عُدتُ من حيثُ بدأتُ... لوحةُ مفاتيحٍ، وعيونٌ عربية!

(27)
وصفة الحب

الحبُّ جزء من المشكلة، وفي نفس الوقت الحب جزء من الحل، وأحيانا يكون هو المشكلة بأكملها، وأحيانا أخرى يصبح الحب هو الحل الوحيد.

يصبحُ الحبّ جزءا من المشكلة، حين تصبح القلوبُ مثل الجانب المظلم من القمر، وحيث لا يشرقُ الحبّ لا يمكنُ لستائر الظلام أن تُزاحَ عن نوافذِ القلوب، إن الحبُّ هو الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يبعث من الموتِ جميع العواطف والمشاعر، هو الفتيل الوحيد الذي يظل قادرا على الاشتعال مهما حصل، هو الوحيد الذي يستطيعُ أن يبدأ كل شيء، وأن ينهي كل شيء في لحظات، الحب جزء من المشكلة وجزء من الحل، الحب ليس كل شيء، لكنه قطعًا أهمُّ من كل شيء.

المالُ موجود والأهل والبنون موجودون، الشريكُ موجود، كل نعم الدنيا موجودة بين أيدينا، لكن ما بالُ مفرداتنا باردة كالصقيع، وجميع نظراتنا تطيشُ إلى الجهة الأخرى، بعيدا عن عيون من يحدثنا؟

ما الذي يجعل كل شيء بلا طعم وبلا معنى؟

ما الذي يجعلُ رصيدنا من المشاعر والكلمات فارغا، رغم أننا نمتلك من الكلمات والمشاعر تُراث عشرات الآلاف من السنين؟

أحيانا يكون الحب هو المشكلة بأكملها، فهو الشيء الوحيد الذي ينقصُ رغم جميع ما نملك، هو الشيء الوحيد الذي ينقص رفوف المكتبة، وقنينة العطر، وفسحة نهاية الأسبوع، وتحيتنا قبل الخروج صباحا، ودافعنا للعودة إلى ذلك البيت فيما بعد.

ما هذا الجنون؟ ما هذا التناقض الصارخُ بين الحقيقة والواقع؟

وهل يحتاجُ الناس للحبّ بعد أن يكون كل شيء متوفرًا حد الثمالة وحد الملل؟ ما هذا الأمر العجيب الذي يحصل؟

أيُعقلُ أن تكونَ القطعةُ المفقودةُ هي المشكلة برمتها؟ وأن يتوقف عليها لملمةُ شتاتنا؟

واستحالةَ تشكلِ الصور... واستحالة رصفِ الكلماتِ في شكلِ جملٍ مفيدة؟

أهذا هو السببُ الذي يجعلُ الهذيانَ أولى علاماتِ الحبّ، وانتكاسَ أعلامِ الأمل على صفحاتِ الوجوه؟

الأمر عجيبٌ حقًّا!

وأحيانا يكون الحب هو الحل الوحيد، لجميع خلافاتنا وجميع اختلافاتنا، هو الحل الوحيدُ الذي يستطيع أن يرضي جميع الأطراف، فالحبُّ ليس مثل التجارة كي ينتظر كلّ طرف من الآخرِ عائدات مادية جزيلة العطاء، وليس مثل الرياضة والحرب لكي تتواجدَ فيه حتميةُ الخسارة لدى طرفٍ دون آخر.

الحبُّ لا يخسرُ فيه أي طرف، ولا يتأذى منه أي طرف، هذا هو المغزى من وجودِ الحب، فالحب يولدُ من أجل الغير... تماما مثلما يولد من أجل الذاتِ.

هنالك حاجةٌ ملحةٌ تختبئُ بين طياتِ الخسائر وخيباتِ الظن الكثيرة، تُأجّجُ رغبةً عظيمة...كي تمنعَ ما حدث لنا أن يتكرر للناس، وأن نحاولَ حماية الإنسانِ الذي يُشبهنا من الطعناتِ والكذباتِ والهجرِ والبرودِ، ومن جميعِ تبعاتِ انهيارِ أسهم الحبِّ في بورصة الحياةِ المادية.

إن الحبَّ لا يحتاجُ إلى وصفة خاصة، ولا إلى أدواتٍ معقدة، ولا إلى ترتيباتٍ فائقة الدقة والإتقان، الحب لا يحتاج إلا لتنظيفِ نوافذ القلوب، وبعض الصدق في الأحداقِ واسترخاءً لعضلاتِ الوجه والأجفان، وأن نُدَوزِنَ أصواتنا على سُلّم الحب الموسيقي، الأمر سهلٌ جدا ولا يحتاجُ إلى تدريب، فكلنا قد خُلقنا أطفالاً جاهزين للحبِّ،

نحنُ لم نخلق أبدًا على هيئتنا الحالية... بهذا القدرِ المفزِعِ من الجراحِ، وهذا القدرِ الهائلِ من الهموم.

وما إن نشعر أن من نحبُّ يستحق اتِّقادَ الحشا، ما إن نشعر أنه يستحقّ استعدادنا للاحتراق طوعا، يصبحُ الحب حينها هو سعادةُ من نُحبُّ، وسر سعادتنا، سر قوتنا، يُصبِحُ الحبُّ دافعنا وسرُّ عودتنا من أرض الموت... من منفى الكبت... ومن عمقِ الصمت.

(28)

خربشات

من الطبيعي أن ينكثوا العهود...

لأنهم لم يجدوا ضالتهم عندك!!

***

الذكريات المؤلمة...

صفعة تحذير...

من أخطاء ستتكرر.

***

الضمائر الحية...

فلك لا تهزمه أمواج الفاسدين.

***

البطل الحقيقي...

هو من يتحمل جحافل التافهين...

كل يوم...

***

تصبّر ما استطعت

فكل ما تراه...

سرابٌ لا يدوم

فالشمس لا تخاف...

من كثرة الغيوم

***

عدد عضلات الوجه

عند الابتسام 17 عضلة...

فلا تكلفها عناء الابتسام...

ان كان قلبك ينضح نفاقا...

***

عندما تجد نفسك وحدك...

فاعلم أن الله قد أسقط حولك...

جميع الدمى!

***

أعلى درجات الصداقة...

أخذك بيد صديقك إلى الجنة...

***

مثل الصديق وقت الضيق...

كمثل البذرة تخترق التراب صعودا...

كي تتنفس انت...

***

إذا كان بيتك من حجارة...

فاستر من كان بيته من زجاج.

***

الإرادة الضعيفة...

مثل القوس المكسور...

لا يرمي قيد أنملة...

***

الوحدة بيتُ الحوار الهادئ...

مع النفس الغاضبة من كل شيء.

***

ضريبة الصبر غالية...

لكن عائداته... شيك على بياض.

يستطيع الانسان...

أن يعيش بلا بيت...

لكنه لا يستطيع...

أن يعيش بلا كرامة...

***

أنا لستُ معجبًا بكِ لأنكِ تُشبهينني...

بل لأنكِ العكسُ النقيضُ...

لنقاطِ ضعفي...

****

وماذا أكونُ...

دون دعاءٍ أمي...

***

الظروف...شماعة الفشل...

والفاشلين...

***

من تتصل به دومًا...

يرعاك دومًا...

فما ظنك بمن تتصلُ به...

خمس مرات باليوم!

***

حين بلغتُ الخامسة والثلاثين...

اكتشفتُ أنه للتو...

صار لي عقل!!

***

سألني صاحبُ المقهى...

ماذا تشرب؟

أجبته قائلا...

فنجانُ صبر لو سمحت!

***

تعالي أقبلُ ما بين عينيكِ...

وأكتفي بقبلتي...

فطورا كل صباح...

***

قالت... وجودك بقربي يكفيني...

ألم تدرِي يا مهجة الفؤاد...

أن وجودي في حرم وجودكِ...

كويكبٌ... وشمس!

***

الإبحارُ في الماضي ضياع...

والإبحار في المستقبل...

ضياعٌ أيضا!

***

التفاصيل الصغيرة...

ستصبح يومًا ما...

أمرًا كبيرًا...

(29)

البحث المستميت

عندما ترفض الأحلامُ واقعنا، تنتكسُ فورًا إلى كوابيس... نصبح حينها في بحث مستميت عن شبرٍ لنا في أرض الواقع، وعن خط النهاية، عن التهاني والتبريكات، وعن مغزى لوجود هذه الأحلام.

واقعنا مرير، ظروفنا مريرة، كل شيء لا يبشر بالخير، فالصداقة مثلا صارت مصلحة، وأصدقاؤنا يصبحون دمى تحركهم دوافع شخصية وأنانية لا تعترف بالآخر.

الزواج صار شركة تجارية، لابد للرجل أن يكون عاملا براتب جيد ومسكن شخصي وحساب بنكي متخم، لا بأس إن كان بدون روح، وبدون مظهر بشري... المهم أن يكون ثور حقل سهل المطية.

الشهادة أصبحت بارومترًا يقاس به العلم، ليس مهما أن تكون موهوبا عبقريا، بل لا يجب أن تكون عبقريا بين قطعان الغباء... كي لا تعريهم وتكشف سوأتهم... يجب أن تكون ظلا لرئيسك

في العمل، وأن تثبت له دومًا أنه أذكى منك... إياك أن تثبت له أنك أغبى منه!

أما الأخلاقُ فقد صارت شذوذا وطفرة تثير الغرابة، إن الأخلاق صارت طقوسًا لديانة قديمة وهرطقات كهنوتية... لا تسمن ولا تغني من جوع، ماذا فعل أفلاطون بمدينته الفاضلة، وماذا تساوي الشعاراتُ غير بضع دنانير الجرائد، وماذا جنت غير أوساخ زجاج النوافذ!

والحبّ... نال نصيبه من الأذى إذ صار كذبة تستهوي من له مصلحة أو شهوة، فهو يحبها ويريدها زوجة له، لأن راتبها مغري، أو لأنها فاتنة حسناء... وهي تحبه وتريده لها لأنه عكس خطيبها الأولِ المقتول غدرًا... له سيارة وبيتٌ، ومستقبل زاهر بين طيات دفتر الشيكات... نعم، إن القضية ليست قضية مبدأ... بل قضية من يدفعُ أكثر، الحب صار مرابحة في سوق المشاعر!

إن كل المصطلحات قد انتكست رأسا على عقب، كل المعاني الجميلة لم تجد من يعشقها إلا الوحشُ... واقعٌ مريرٌ يمتلأ قبحا وزيفًا وتفاهة.

وفي واقع نعيشه وليس لنا حيلة معه، تنتكس الأحلام بداخلنا، لتصبح كوابيسًا تنتهكنا في كل مرة نحاول فيها أن نبتسم، في كل مرة نحاول ترسيمها إلى حقيقة.

ما فائدة الأحلام إذن إن كان واقعها قبيحًا بهذا الشكل؟

لماذا نحلمُ ونحملُ آمالنا طوال الطريق إن كان خط النهاية وهمًا...

إن كان خط النهاية أصلا هو خط البداية؟

نحن كبشر، نحن نمتلك أقوى قدرة، وأعظم هبة، نحن نمتلك القدرة على أن نجعل الأحلام واقعا، حتى وإن لم تتحقق، نحن نملك القوة بأن نجعل الأحلام عالمًا موازيا للواقع المرير، نلجأ إليه في حالة الطوارئ، نحن نمتلك الإرادة وغريزة البقاء التي تجعلنا نتنفس أحلاما.

إن أحلامنا هي كنزنا، هويتنا، هي الدافع لأعضائنا الحيوية كي تستمر في الحياة، هي وقودنا ولهفتنا التي نستيقظ بها من الكوابيس كل مرة، إن أحلامنا هي سر وجودنا مهما اختلفنا في أهميتها، ومهما اختلفت أحلام كل واحد منا... أحلامنا أيامّ نريدُ أن نعيش أكثر... لنحياها...!

الفهرس

1- من منهما أحلى؟
2- جراح القريب
3- الخيال
4- طريق وإشارات
5- حقيقة المحبة
6- أجرام
7- لم أتغير لأجلك
8- ما أصعب الفشل
9- نقيضان متكاملان
10- توقعات
11- فكر أرض ومطر
12- لا أسمع لا أرى لا أتكلم
13- خمس وأربعون
14- كتابة
15- زاوية
16- لماذا؟
17- أرق ما خلق الله

18- ذكريات صبا
19- الوردُ لا يُزرع على الإسمنت
20- هلاّ صنعتَ فراشة؟
21- بصمة
22- سعادة أم أفيون؟
23- الزهيراتُ الشذية
24- الحزن
25- أنا والليل
26- عرسٌ وميعاد
27- وصفة الحب
28- خربشات
29- البحث المستميت